

معالم الأخلاق

الجزء الأول

الشيخ جعفر المطر

الدرس الأول

الإهداء

تقريظ

المقدمة

ما هو الخلق؟

الدرس الأول

أهمية مكارم الأخلاق

الربح والخسارة:

الثروة والمال ليسا هما السعادة:

السعادة الحقيقية:

كيف تكسب قلوب الآخرين؟

المعاملة الحسنة في الميزان

ان في خلقه مع أهله سوء

لا خير في صلاتها:

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق:

خلّوا عنها فإن أباهما يحب مكارم الأخلاق:

للقرأة والتأمل

الأسئلة

الدرس الثاني

هل يمكن أن نبدل الرذائل إلى فضائل؟

الأقوال في المسألة:

القول الأول:

القول الثاني:

التحقيق في المسألة:

الجهاد الأكبر:

أشدد حيازيمك:

للقرأة والتأمل

الأسئلة

الدرس الثالث

معرفة النفس

من عرف نفسه فقد عرف ربه:

ما هي النفس؟؟

صفات النفس:

القوى الثلاث للنفس:

وظائف القوى الثلاث:

النفس المطمئنة والأمانة واللوامة:

حالات ثلاث لنفس واحدة:

للقرأة والتأمل

الأسئلة

الدرس الرابع

الأصول الأربعة للفضائل

ضرورة القوى الثلاث:

لا إفراط ولا تفريط:

أمهات الفضائل:

الأصل الأول [العفة]:
الأصل الثاني [الشجاعة]:
الأصل الثالث [الحكمة]:
الأصل الرابع [العدالة]:
للقراءة والتأمل
الأسئلة

الدرس الخامس

جذور الأخلاق ودوافعها
النظرية الأولى: المصلحة الفردية
مناقشة النظرية
النظرية الثانية: الإشتراكية:
مناقشة النظرية:
النظرية الثالثة: المسؤولية والضمير:
مناقشة النظرية:
النظرية الرابعة: الدين:
للقراءة والتأمل
الأسئلة

الدرس السادس

نظرية نسبية الأخلاق
الحسن والقبح العقليان:
العنوان الأولي والثانوي للأفعال:
المثال الأول: الصدق والكذب:
المثال الثاني: التواضع والتكبر:
المثال الثالث: الحلم والغضب:
المثال الرابع: أكل لحم الميتة:
المثال الخامس: لمس الرجل جسد المرأة:
المثال السادس: الوفاء والغدر:
المثال السابع: العفو عن المسيء:
المثال الثامن: الظن:
تنبيه
للقراءة والتأمل
الأسئلة

الدرس السابع

مسالك تهذيب الأخلاق
المسلك الأول:
٢- مدح العقلاء:
نظرة في المسلك الأول
المسلك الثاني:
نظرة في المسلك الثاني:
المسلك الثالث:
أسباب الحب لله:
السبب الأول: حب الذات:
السبب الثاني: حب الكمال والجمال:
السبب الثالث: طلب العزة والقوة والملك:

خلاصة الفرق بين المسالك الثلاثة:
للقراءة والتأمل
الأسئلة

الدرس الثامن

كيفية التخلص من العادات الذميمة
الخلق الكامل:
يولد الإنسان صحيفة بيضاء:
أدق من الشعرة:
العادة طبع ثاني:
ثري يعشق الاستجداء:
ثلاثة شروط أساسية لمكافحة العادة:
نصائح لتقوية الإرادة:
أهمية تكرار العمل:
المثال الأول: إزالة صفة الجبن:
المثال الثاني: إزالة صفة البخل:
العرائز ومكافحة العادة:
المثال الأول: داء الغرور:
المثال الثاني: داء الحسد:
المثال الثالث: داء التكبر:
للقراءة والتأمل
الأسئلة

الدرس التاسع

العوامل التي تضمن استمرار الاستقامة
صمام الأمان:
العامل الأول: المراقبة:
المقصود بالمراقبة:
بهذا فضلته عليكم:
ماذا عن الله؟
الشباب المجتهد في العبادة:
العامل الثاني: المحاسبة:
المقصود بالمحاسبة:
المحاسبة عند أمير المؤمنين عليه السلام:
أهمية المحاسبة:
الجانب الأول: الفترة الزمنية:
الجانب الثاني: الهدوء النفسي:
ثمار المحاسبة:
العامل الثالث: المعاقبة:
كيفية المعاقبة:
التصدق بالبستان عقاباً:
لا يشرب البارد طيلة حياته:
للقراءة والتأمل
الأسئلة

الدرس العاشر

علاقة الصداقة بالأخلاق

الصدقة تغذي الأخلاق:

محاسن العزلة

أولاً: الابتعاد عن الانحرافات:

ثانياً: القرب من الله:

ثالثاً: التفكر:

رابعاً: الموافقة للقرآن والسنة:

مساوئ العزلة:

مساوئ وأضرار:

أولاً: الانحراف الفكري:

ثانياً: الجهل:

ثالثاً: هدر الطاقات:

رابعاً: الأمراض النفسية:

خامساً: الحرمان من اكتساب الكثير من الفضائل وعدم القدرة على تطبيقها إطلاقاً:

سادساً: الحرمان من الثواب الجزيل:

لتحقيق في المسألة:

العزلة على نحوين:

الاختلاط على نحوين:

نظرة القادة للمسألة:

الأصدقاء صنفان:

اتبع من يبكيك:

للقراءة والتأمل

الأسئلة

الخاتمة

معالم الأخلاق

الجزء الأول

الشيخ جعفر المطر

الإهداء

إلى سادتي أهل العبا وأهل البيت النّجباء ومصابيح الدّجى حمد وعترتة الأوصياء

صلوات الله عليهم أجمعين سيما بقيّة الله الأعظم أرواحنا له الفداء...

وإلى والديّ وأخوتي وأم أولادي...

وإلى كل من أسدى إليّ معروفاً من أساتذة وزملاء وأصدقاء وأخص بالشكر الأخ العزيز

أبا محمد وفقه الله والذي بذل جهداً لا ينسى في إصدار هذا الكتاب...

إلى هؤلاء جميعاً أقدم هذا الجهد القليل وفاء لجزء من حقوقهم، وكلي أمل أن يحظى

بالرضى والقبول منهم...

المؤلف

تقريض

لقد تكرم أستاذنا سماحة العلامة السيد محمد علي السيد هاشم العلي حفظه الله بهذا

التقريض بعد مراجعته الكتاب، شاكرين له تفضله هذا، وجزاه الله خير الجزاء.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين قال تعالى:

{وانك لعلى خلق عظيم} [1] صدق الله العلي العظيم.

الخلق يفسر لغة بالسجية كما في مجمع البحرين وجمعها سجايا والخلق جمعه أخلاق، والخلق كلي تحته فردان أحدهما يوصف بالحسن فيقال خلق حسن والآخر يوصف بالسوء

فيقال خلق سيئ إلا أننا مع ذلك كله نرى في أنفسنا انصراف لفظ الأخلاق إلى السلوك

الحسن فحسب وتبادره منه عند إطلاقه وكأنه حقيقة فيه ولعل ذلك نشأ من كثرة استعمال

لفظ الأخلاق في السلوك الحسن بحيث أكسبه وصفاً تعينياً والتبادر أحد علامات الحقيقة.

وكيف كان فالآية المتقدمة جاءت في مدح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

وهي تصفه بأنه على خلق عظيم وتأتي الروايات أيضاً وتعطي عرضاً تفصيلياً عن كريم

خلق الرسول فمنها ما عن كتاب النبوة عن أمير المؤمنين (ع) قال: **(ما صافح رسول الله**

أحداً قط فنزع يده من يده حتى يكون الذي هو ينزع يده وما فاوضه أحد قط في حاجة أو

حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف وما نازعه أحد الحديث فسكت حتى

يكون هو الذي يسكت وما رؤي مقدماً رجليه بين يدي جليس له قط[2]2 وقد ذكر في

مكارم الأخلاق كذلك عرضاً مفصلاً عن أخلاق الرسول في المأكل والمشرب والمجلس

وغيرها والرسول قدوة لأمته فيما يأتي به من سلوك فإن فعل المعصوم وقوله وتقديره

سنة يلزم أتباعها والأخذ بها تأسياً.

والكتاب العزيز بدوره أكد على أخذ الأخلاق كسلوك عملي في أكثر من موضع وفي

عدة آيات منها قوله تعالى: **{وإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله**

مباركة طيبة}[3]3 وقوله تعالى: **{وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو**

ردوها}[4]4 وقوله تعالى: **{ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم**

بالتي هي أحسن}[5]5 وقوله تعالى: **{ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي**

أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم}[6]6 وقوله تعالى: **{وقضى ربك ألا**

تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما

[2]2 البحار ج ١٦ ص ٢٣٦.

[3]3 النور آية ٦١.

[4]4 النساء آية ٨٦.

[5]5 النحل آية ١٢٥.

[6]6 فصلت آية ٣٤.

أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي

ارحمهما كما ربياني صغيراً[٧]٧.

وفي السنة الأحاديث الكثيرة الداعية إلى الالتزام بالأخلاق والوجدان كذلك يشهد بأن الأخلاق هي أبرز عوامل الربط بين أفراد المجتمع بل هي أنجح وسيلة يمكن الاعتماد عليها في هذا المجال، وبالجملة إن أهمية الأخلاق وأهمية دورها في إيجاد العلائق بين أفراد المجتمع ذلك أمر لا ينبغي التشكيك فيه بعد ما قام عليه من الأدلة من الكتاب والسنة بل نرى أن الشريعة اعتمدت الأخلاق وأخذتها شرطاً في المكافئة بين الزوجين ففي حديث الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم المروي عن أمير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: **(إذا جاءكم من ترضونه خلقه ودينه فزوجوه)**[٨]٨ وبالعكس جعلت الشريعة سوء الخلق سبباً للمنع من التزويج لعدم المكافئة ففي الحديث المروي عن الحسين بن بشار قال كتبت إلى أبي الحسن الرضا (ع) أن لي قرابة قد خطب إلي وفي خلقه سوء قال: **(لا تزوجه إن كان سيء الخلق)**[٩]٩.

والسر في ذلك واضح فإن الحياة الزوجية قد فرض فيها أن تكون حياة سعادة وهي لا

تكون إلا بالوآم والوفاق ففي الآية الكريمة: **(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً**

[7]٧ الإسراء آية ٢٣-٢٤.

[8]٨ البحار ج ٩١، ص ٢٦٤.

[9]٩ البحار ج ١٠٣، ص ٢٣٤.

لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة{١٠}[١٠] وهذا القدر من الالتحام الذي تفترض الآية حصوله بين الزوجين بحيث تكون المرأة سكناً للرجل لا يتحقق مع سوء الأخلاق وإنما يتحقق مع تبادل السلوك الحسن بينهما وإن أهم نص كشف عما للأخلاق من أهمية هو حديث الرسول المشهور **(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)**[١١][١١] فإن بعثة الرسول التي هي الوسيلة الكبرى لهداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور إذا كانت الغاية منها هو تميم مكارم الأخلاق فذلك ما يجعل الأخلاق في أبرز مقام من حيث الضرورة ولزوم التحقيق في السلوك العملي بل إن من شواهد أهمية الأخلاق أيضاً اعتبارها علماً برأسه بحيث اعتمدها العلماء فألفوا فيها الكتب قديماً وحديثاً فقد ألف رضي الدين الحسين بن فضل الطبرسي وهو من أعلام القرن السادس كتابه مكارم الأخلاق وألف الفيض الكاشاني كتابه المحجة البيضاء وألف النراقي كتابه جامع السعادات وألف من المتأخرين السيد عبد الله شبر كتابه الأخلاق وألف السيد علي فضل الله كتابه الأخلاق الإسلامية وألف غيرهما أيضاً وسار في هذا الاتجاه الأستاذ الشيخ جعفر المطر وهو أحد فضلاء الحوزة العلمية في الأحساء وأحد مدرسيها فألف كتابه معالم الأخلاق).

وكتابه هذا على ما أخبرني به كان في الأساس عدة محاضرات ألقاها كدروس أخلاقية وقد أحب حفظها عن الضياع فجمعها وألف منها هذا الكتاب، وقد برز منه الجزء الأول

١٠ [10] الروم آية ٢١.

١١ [11] البحار ج ١٦ ص ٢١٠.

وهو يشتمل على مقدمة وإهداء ومدخل وتأتي بعدها مجموعة من الدروس تبلغ العشرة،
والأول من هذه الدروس صدره بعنوان أهمية الأخلاق وقد تكلم في هذا الدرس عن حاجة
الإنسان إلى تهذيب نفسه وإعادها عن العادات السيئة وتعرض كذلك للسعادة وأنها أين
توجد وكيف الوصول إليها وقد رسم في بحث مفصل أقرب الطرق الموصلة إليها مع أخذ
البرهنة عليها بعين الاعتبار ليعطي القارئ قناعته التامة بما انتهى إليه من نتيجة وفي
نهاية هذا الدرس أورد حديثين تحت عنوان للقراءة والتأمل وختم الدرس بعدة أسئلة
طرحها للتمرين، أما الدرس الثاني فقد جعله تحت عنوان هل يمكن تبديل الرذائل إلى
فضائل؟ وقد دار البحث في هذا الدرس في إمكان التبديل وعدمه وقد أورد في هذا الصدد
قولين أحدهما القول بالاستحالة والآخر القول بالإمكان وقد استعرض أدلة القولين وانتهى
إلى نتيجة هي القول بالتفصيل بين صفات وصفات أخرى، وتعرض كذلك لمجاهدة النفس
وأورد بعد ذلك آيتين من الكتاب العزيز تحت عنوان للقراءة والتأمل وختم الدرس كذلك
بعدة أسئلة للتمرين ؛ وفي الدرس الثالث صدر الدرس بعنوان معرفة النفس وقد تكلم فيه
عن معرفة النفس وصفاتها وقواها وأورد في نهاية البحث عنواناً للقراءة والتأمل وختم
الدرس بعدة أسئلة للتمرين، وتكلم في الدرس الرابع عن أصول الفضائل ووضع عنواناً
للقراءة والتأمل وضمن الدرس بعدة أسئلة كالعادة ؛ أما في الدرس الخامس فقد تعرض
لجذور الأخلاق ودوافعها وجعل البحث في ذلك دائراً على محور وهو السؤال عما هو

الدافع الذي يجعل الإنسان يتخلق بهذا الخلق أو بذاك وما هو الدافع الذي يجعله يجتنب الأفعال السيئة، وأعطى في ذلك صورة من البرهنة والاستدلال وانتهى إلى النتيجة بإبراز رأيه الذي اختاره معتمداً في ذلك على البرهان، ووضع كذلك عنواناً للقراءة والتأمل وختم الدرس بعدة أسئلة ؛ وفي الدرس السادس كان البحث يدور حول نظرية نسبية الأخلاق والاستدلال عليها ؛ أما في الدرس السابع فقد تكلم عن تهذيب الأخلاق وهو بحث استدلالى تعرض فيه لمسالك ثلاثة واختار فيها المسلك الثالث وقال إن هذا المسلك هو أفضل المسالك في تهذيب الأخلاق، وفي الدرس الثامن تعرض لكيفية التخلص من العادات الذميمة وقد تعرض فيه لبعض الآراء في المسألة وانتهى إلى النتيجة، وفي الدرس التاسع كان الكلام يدور حول العوامل التي تضمن استمرار العادة الحسنة ويسميتها بالاستقامة وقد استعرض في ذلك عدة عوامل، أما الدرس العاشر وهو نهاية هذا الجزء فقد تكلم عن علاقة الصداقة والبحث فيه يدور عن قضية العزلة والاختلاط والتحقيق حولهما ثم انتهى إلى النتيجة بإبراز الحق في المسألة حسب مختارة في المسألة وتكلم كذلك عن تأثير الصداقة في الأخلاق، هذا كل ما في هذا الجزء وقد وعد بإخراج بقية الأجزاء.

وبعد ملاحظتي لهذا الجزء وجدته - والحق يقال - كتاباً نافعاً في بابه وهو بحسب تقديري الشخصي صالح لأن يدرس في المرحلة الأولى والثانية للحوزة لما اعتمده فيه من بساطة الأسلوب، وهو في نفس الوقت كتاب مطالعة للمراحل الأخرى.

ولا يفوتني وأنا أقرض هذا الكتاب أن أرفع للأستاذ المطر أسمى آيات التهنئة والتبريك
على ما أحرزه لنفسه من وسيلة لبقاء العمل بعد انقطاعه بانتهاء الحياة فإن كتاب العلم هو
أحد الوسائل التي عرضها الحديث الشريف: **(إذا مات المؤمن انقطع عمله إلا من ثلاث
صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)**[١٢].

وأسأل المولى جل ذكره أن يكمل له الوسائل الثلاث ليكون قرير العين بها يوم لا ينفع
مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الأحد الثالث والعشرون من شهر

محرم

لسنة ١٤٢٠ من الهجرة النبوية

محمد علي السيد هاشم العلي

المقدّمة

الحمد لله كما هو أهله وأفضل صلواته على أشرف خلقه محمد الأمين وعترته سفن

النجاة الميامين سيما ببقية الله في أرضه أرواحنا فداء، وبعد..

فهذا العبد الفاني الغريق في بحر الغفلة المستسقي ربّه وابل جوده وطوله والمستمطر
غمام فضله، يقول: لا ريب في أن أهم ما يوجب النجاة من الهلكة في الدارين هو تركية
النفس وحملها على الفضائل وإبعادها عن الرذائل وإحياء الميول المعنوية الموجودة في
الأعماق والتحلي بمكارم الأخلاق إذ أنها معيار الكمال الحقيقي ومصدر السعادة.

وإذا كانت هذه الأمور ضرورية للناس على مر جميع العصور فإن الضرورة للبعد
الإيماني والأخلاقي قد ازدادت في عصرنا الحاضر حيث التطور المستمر وازدياد الفراغ
والبطالة ونفسيّ أنواع اللذات والشهوات والانغماس في الماديات، ومن الواضح أن الحياة
الاجتماعية البعيدة عن الإيمان والأخلاق ستصبح مليئة بالمصائب ومشحونة بالنكبات
والويلات وبالتالي انتشار الجرائم مما يسلب المجتمع أمنه واستقراره كما هو حاصل
بالفعل، ومن أراد الوقوف على صدق هذا الكلام فعليه أن يلقي نظرة عابرة للبلدان
الصناعية - التي ابتعدت عن الأخلاق - ليرى الإحصائيات الرسمية عن الجرائم
المروعة على مرّ الدقيقة!!

وبالتالي فما أحوجا لصيانة أنفسنا وأسرنا ومجتمعنا من السقوط، وإن ذلك لن يتحقق إلا
بالسعي للتحلّي بالصفات الحميدة والابتعاد عن الصفات الذميمة حيث أن ذلك سرّ النجاح

كما يقول أمير المؤمنين (ع): (لو كنا لا نرجو جنّة ولا نخشى نارا ولا ثوابا ولا عقابا

لكان ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق فإنها مما تدلّ على سبيل النجاح) [١٣]١٣.

وإن تزكية النفس وحملها على الفضائل وإبعادها عن الرذائل يتطلّب معرفة النفس **أولاً** ثم

معرفة أقرب الطرق للوصول إلى تهذيبها **ثانياً**، ومهمّة الكتب الأخلاقية — على اختلاف

أساليبها — تسعى لبيان هذين الأمرين.

وإنني أحببت المساهمة في هذا المضمار الشريف، مستلهما من نفحات هؤلاء العظماء

ومقتبسا من أشعة أرواحهم، فاستعنت بالله وشرعت في إعداد هذا الجهد القليل.

وهذا هو القسم الأول من هذا الكتاب وقد خصّصته لذكر ما يتعلق بالأخلاق بصورة

عامه والتأكيد على أهم الأساسيات التي يعتمد عليها السالك في سلوكه نحو الفضائل والتي

تعتبر بمثابة القلب النابض الذي يزود الراغبين للسير في هذا الطريق المبارك، وأما بقية

الأقسام من هذا الكتاب فسوف نتناول فيها نماذج من الفروع الأخلاقية.

وقد حاولت جاهدا تبسيط العبارات التي عادة ما تكون في كتب الأخلاق غامضة كأنها

الطلاسم، مع مراعاة الحالة الوسط بين التطويل المملّ والاختصار المخلّ، كما أنني رتّبت

هذا الكتاب على هيئة دروس لسببين:

الأول: إيصال المفاهيم الأخلاقية إلى ذهن وقلب القارئ الكريم بصورة أسرع وأفضل

وعلى كافة المستويات

الثاني: إمكان تدريسه — لمن أراد ذلك — بسهولة في الحلقات التربوية والتعليمية

المنتشرة في أوساط الفتيان والفتيات، إذ أن معظم هذه الحلقات تفتقد هذه المادة منهجيا مع

ما لها من أهمية.

هذا وكلي أمل في أن يحقق هذا الكتاب الغاية المنشودة من وراءه بتوفيق من الله تعالى.

وأخيرا أقول: {إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه

أنيب} [١٤].

والله من وراء القصد،،

جعفر بن الحاج عباس المطر

الأحساء

يوم عيد الغدير

١٤١٩/١٢/١٨ هـ

المدخل

ما هو الخلق؟

الخلق هو: [حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة] ١٥ [١٥]، وهذا

التعريف ينطبق على الخلق الحسن والقبيح، فالخلق هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال ببسر وسهولة بلا تكلف ومن غير صعوبة، بل يجد نفسه منجذبة نحو ذلك الفعل وكأنه أمر فطري.

ويفهم من هذا أنه لا يطلق على من يأتي بصفة أخلاقية كالتواضع في بعض الأحيان لا على سبيل الاستمرار والدوام بأن (خلقه التواضع) إلا إذا ثبتت في نفسه وترسّخت وأصبحت أمراً من الأمور المطبوعة والسجايا المنقوشة في ذاته لا أنها صدرت منه بنحو الافتعال والتكلف..، وهكذا الكلام في سائر الصفات الأخلاقية.

وبطبيعة الحال إن الإنسان لا يصل إلى هذا النوع من الخلق إلا من خلال قطع المراحل المطلوبة في هذا المجال فهو في أول الأمر يتكلف هذا الخلق وذاك ويجده عسيراً ولكنه يرغم نفسه عليه ويعودها على ممارسته شيئاً فشيئاً بعد أن يعر القواعد الأساسية لذلك وبالتالي يتحول إلى سجية منطبعة وخلق راسخ في النفس متعسّر الزوال، وستعرف في هذا الكتاب ما يدور حول هذا الموضوع بصورة جلية.

تنبيه:

تم تخريج مجموعة من الأحاديث الموجودة في هذا الكتاب بواسطة الحاسب الآلي
(اسطوانة النور) لاسيما المخرجة من كتاب (بحار الأنوار) فيلاحظ اختلاف الأجزاء
والصفحات.

الدرس الأول

أهمية مكارم الأخلاق

الربح والخسارة:

إن الإنسان بأمس الحاجة إلى تأديب نفسه وتهذيبها وتعويدها على العادات الحسنة
وإبعادها عن العادات السيئة فإن الربح هو ربح النفس والخسارة خسارتها كما يقول تعالى:
{قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}[١٦]١٦، مضافاً إلى أن الأخرى هي الحياة
الخالدة، يقول تعالى: **{إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار}**[١٧]١٧
ويقول تعالى: **{فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز}**[١٨]١٨ ولأجل ذلك يكون
الربح ربحها والخسارة خسارتها.

١٦ [16] (دساها بمعنى نقصها وأغواها وأفسدها بارتكاب الذنوب)، الآية (٩-١٠) سورة
الشمس.

١٧ [17] آية ٣٩ سورة غافر.

١٨ [18] آية ١٨٥ سورة آل عمران.

الثروة والمال ليسا هما السعادة:

من منا لا يبحث عن السعادة؟ إن الكل يرغب أن يسعد في الدنيا والآخرة ولكن ما هي السعادة وأين هي؟ وما هي الأسباب الموفرة للسعادة؟ قد يظن البعض بأن السعادة تكمن في الأموال فمن يملكها يكون سعيداً، لكن إذا أردنا أن نعرف أن هذا الظن غير صحيح وفي غير محله فعلياً أن ننظر إلى البعض ممن يملكها عندما يرغب أن يحبه الآخرون ويحترمونه ويركعون له وينفذون أوامره ويلبّون رغباته فلا يتأتى له ذلك، فيبقى الهمّ ينخر قلبه ويسلب راحته حتى يموت كمداً، مضافاً إلى أن هذه الثروة التي جمعها – لسنوات طوال – هي عرضة للتلف والضياع خلال لحظة واحدة، فلنتصور ماذا سيحل بعقله حينئذ؟ ونحن نقرأ عبراً كثيرة في القرآن حول من ملك الثروات واستثمر العقارات وغرته الدنيا، فإلى أي حال أصبح مصيره؟ كقارون وأمثاله ممن تجبروا وتكبروا فأصبحوا من الخاسرين.

إذا فالأموال ليست هي السعادة الحقيقية بل هي جزء بسيط منها إن بذلت في محلها المناسب وإلا فهي دمار وشقاء تسلب الراحة من صاحبها وتجلب له الهموم، ولذا قيل: الدّينار نارٌ والدرهم همّ.

السعادة الحقيقية:

لا تذهب يميناَ ولا شمالاً عندما تبحث عن السعادة، لأن السعادة تكمن في نفسك التي بين جنبيك وذلك بتعويدها على الأخلاق الحسنة وإلزامها بمكارم الأخلاق ومن هنا قيل:
(إن تمام السعادة بمكارم الأخلاق).

— فمن أراد سعادة الدنيا فعليه بمكارم الأخلاق.

— ومن أراد سعادة الآخرة فعليه بمكارم الخلاق.

— ومن أراد سعادة الدنيا والآخرة معاً فعليه أيضاً بمكارم الأخلاق.

يقول الرسول (ص): **(من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء**

الخلق)[١٩]١٩، ويقول (ص): **(أكثر ما يلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق:**

وهما يعمران البلاد ويزيدان في الأعمار)[٢٠]٢٠.

كيف تكسب قلوب الآخرين؟

كما قدمنا إن الإنسان لا يقدر على كسب الآخرين عن طريق الأموال فقط وإنما يحتاج

إلى أن يتحلى بمكارم الأخلاق وبالتالي فإنه من السهل الطبيعي له أن يجذب الآخرين

ويكسب قلوبهم إليه، يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: **(يا بني عبد المطلب إنكم**

[19]١٩ مستدرک الوسائل ج ٨ ص ٢٤٧.

[20]٢٠ الأخلاق: السيد عبد الله شير ص ٥.

لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر) ٢١ [٢١]، ويقول (ص):

يا أيها الناس إني أعلم أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن بالطلاقة وحسن

الخلق) ٢٢ [٢٢]، ويقول أمير المؤمنين (ع): (أفضل على من شئت تكن أميره) ٢٣ [٢٣]

وفي لفظ آخر (أحسن إلى... إلخ) وقال أيضاً: (بالإحسان تملك القلوب) ٢٤ [٢٤].

نعم إن مكارم الأخلاق هي السبيل الوحيد لكسب ود الناس وحبهم، وكمثل على هذا

(العفو) والصفح عن الآخرين فإن نتيجته في كسب الود أكيدة وواضحة، يقول تعالى:

{ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} ٢٥ [٢٥]. و(التواضع)

مثله فإنه يؤدي إلى تقدير الآخرين للتواضع كما في الحديث عن الرسول (ص): (من

تواضع لله رفعه الله) ٢٦ [٢٦].

وهكذا سائر مكارم الأخلاق، بل نقول إن اكتساب الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة يعد

شرطاً أساسياً لتوكيد الذات وإثبات الشخصية الاجتماعية، فالشباب الذي يتحلى بصفات

أخلاقية وإنسانية حميدة يكون عزيزاً ومحوباً في مجتمعه، ويكون قادراً على التكيف مع

٢١ [21] مستدرك الوسائل ج ٨ ص ٤٤٦.

٢٢ [22] مستدرك الوسائل ج ٨ ص ٤٤٨.

٢٣ [23] نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج ١٨ ص ٢١٢.

٢٤ [24] ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٤١.

٢٥ [25] فصلت آية ٣٤.

٢٦ [26] جامع السعادات ج ١ ص ٣٩٥.

الناس والتآلف مع المجتمع على عكس من اجتمعت فيه الصفات الدميمة والأخلاق السيئة

فهو — أياً كان — يبقى منبوذاً من قبل الناس ولا يستطيع تكيف نفسه في مجتمعه

ويظل عاجزاً عن إحراز شخصية مناسبة لنفسه، وهذا ما يؤكد أمير المؤمنين (ع) بقوله:

(سوء الخلق يوحش القريب وينفر البعيد) [٢٧]٢٧.

بل إن الأخلاق الحسنة تورث العزة بعكس الأخلاق السيئة، يقول أمير المؤمنين (ع):

(ربّ عزيز أدلّه خلقه وذليل أعزّه خلقه) [٢٨]٢٨.

فالخلاصة: إن كسب ود الآخرين طريقه مكارم الأخلاق.

المعاملة الحسنة في الميزان:

أكد الإسلام على المعاملة الطيبة للآخرين بل أعتبر حقيقة الدين القويم هي المعاملة

الحسنة، فالدين المعاملة.

كما أعتبر التحبب إلى الآخرين والابتسام في وجوههم من صفات العقل كما ورد عن

أمير المؤمنين (ع): **(التودد نصف العقل) [٢٩]٢٩**، وإذا كان للمعاملة الطيبة هذا القدر في

الدنيا ففي البرزخ والآخرة أكثر وأكثر فقد اعتبرت بعض الأحاديث الشريفة إن أكثر ما

يعذب به الإنسان في البرزخ وفي القبر هو: عدم اعتناؤه بالطهارة وكذلك سوء الخلق، قال

[27]٢٧ غرر الحكم ص ٤٣٥.

[28]٢٨ سفينة البحار ص ٤١١.

[29]٢٩ نهج البلاغة ج ١٨ ص ٣٤٠.

أمير المؤمنين (ع): (عذاب القبر يكون من النميمة والبول وعزب [٣٠]٣٠) الرجل عن

أهله [٣١]٣١] ومعلوم أن النميمة وعدم القيام بالواجبات تجاه الزوجة والأهل من الأخلاق

السيئة.

إن في خلقه مع أهله سوء:

وللتدليل على وجود العلاقة بين الخلق السيئ وعذاب القبر نقرأ هذه الحادثة:

عن أبي عبد الله الصادق (ع) أتى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فقيل له: إن سعد

بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وقام أصحابه معه، فأمر

بغسل سعد وهو قائم على عضادة الباب، فلما أن حنط وكفن وحمل على سريره تبعه

رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم بلا حذاء ولا رداء، ثم كان يأخذ يمناً السرير مرة

ويسرة السرير مرة حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم

حتى لحده وسوى اللين عليه، وجعل يقول: (ناولوني حجراً ناولوني تراباً رطباً)، يسد به

ما بين اللين فلما أن فرغ وحثا التراب عليه وسوى قبره قال رسول الله صَلَّى الله عليه

وآله وسلم: إني لأعلم أنه سيبلى ويصل البلى إليه، ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملاً

أحكمه، فلما أن سوى التربة عليه قالت أم سعد: يا سعد هنيئاً لك الجنة، فقال رسول الله

٣٠ [30] عزب: بتسكين الوسط يعني الإبتعاد والإختفاء.

٣١ [31] البحار ج ٦ ص ٢٢٢.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **(يا أم سعد مه، لا تجزمي على ربك فإن سعداً قد أصابته**

ضمه)، فرجع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ورجع الناس فقالوا له يا رسول الله قد

رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد، إنك تبعته جنازته بلا رداء ولا حذاء،

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **(إن الملائكة كانت بلا رداء ولا حذاء فتأسيت بها)**، قالوا:

وكنت تأخذ يمينا السرير مرة ويسرة السرير مرة، قال: **(كانت يدي في يد جبرائيل آخذ**

حيث يأخذ)، قالوا: أمرت بغسله وصليت على جنازته ولحدته في قبره ثم قلت: إن سعداً قد

أصابته ضمه على! فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **(نعم إنه كان في خلقه مع أهله**

سوء!!) [٣٢]٣٢.

هذا بعض ما يلقاه صاحب الخلق السيئ في البرزخ وإن كان مع أهله وأقرب الناس إليه،

بخلاف الخلق الحسن.

أما في الآخرة وفي ميزان أعمال الإنسان فأول ما يوضع فيه هو حسن الخلق والمعاملة

الطيبة فقد قال الرسول (ص): **(أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن)** [٣٣]٣٣.

نعم إن حسن الخلق يحتل مكاناً بارزاً في الأهمية بحيث له الأثر في قبول الأعمال

كالصلاة والصوم وسائر العبادات.

[32]٣٢ البحار ج ٦ ص ٢٢٠.

[33]٣٣ مجموعة ورام ج ١ ص ٨٦.

لا خير في صلاتها:

وللتدليل على ما سبق فقد قيل للإمام الصادق (ع) فلانة تقوم ليلاً وتصوم نهارها..

ومدحوها كثيراً، فقال الإمام (ع): كيف هي مع جيرانها؟ ما هي علاقتها معهم وكيف

تعاملهم؟ فذموا علاقتها مع جيرانها.. فقال (ع): **(إن لا خير في صلاتها**

وصيامها) [٣٤]٣٤.

نعم فالصلاة إذا لم تصلح علاقة الإنسان بالآخرين فلا خير فيها وكذلك الصيام بل وسائر

العبادات.

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق:

لقد جاء الأنبياء (ع) بشرائعهم من أجل إصلاح أخلاق الناس وتهذيب نفوسهم وقد أدوا

وظيفتهم على أحسن وجه وبعث الله محمداً (ص) لكي يكمل كل الأخلاقيات التي جاء بها

الأنبياء جميعاً كما يقول (ص): **(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [٣٥]٣٥.**

نعم جاء ليأمر بالصدق والتواضع والتعاون والأخلاق و.. و.. الخ، ولم يأت فقط ليقول

للناس صلوا واركعوا واسجدوا وطوفوا حول الكعبة فكل هذه الأمور إنما أمر بها لتحصن

[34]٣٤ عدة الداعي ص ٣١١.

[35]٣٥ بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢١٠.

الإنسان من سوء الخلق وإن السبب في نجاح الرسول (ص) وانتشار دعوته هو أخلاقه
ولينه ورفقه، وسوف يأتي إثبات ذلك في الدروس اللاحقة بإنشاء الله.

خَلُّوا عَنْهَا فَإِنْ أَبَاهَا يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ:

لما أتى المسلمون بسبايا طي كانت من بينهم سفانة بنت حاتم الطائي فقالت: يا محمد، إن
رأيت أن تخليّ عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة رجل من أفضل الناس: كان
أبي يفك العاني [36]36 ويعطي الفاني [37]37 ويحمي الذمار [38]38 ويقري الضيف
ويشبع الجائع ويكسب المعدم [39]39 ويفرّج عن المكروب أنا ابنة حاتم الطائي،

فقال (ص): (خَلُّوا عَنْهَا فَإِنْ أَبَاهَا يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَاللَّهُ يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) فقام
رجل يقال له أبو بردة فقال: يا رسول الله: الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال (ص): (يَا أَبَا
برده، لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا بِحَسَنِ الْخَلْقِ) [40]40.

فلاحظ أن حسن الخلق هو السبب الذي من أجله عفا الرسول (ص) عن هذه الجارية.

[36]36 العاني: الأسير.

[37]37 الفاني: المقيم في البلد.

[38]38 الذمار: ما يلزم حمايته والدفاع عنه.

[39]39 المعدم: المفتقر.

[40]40 آداب النفس للعيناتي ص 27.

وقد أكد الرسول (ص) بصورة أكبر على ذلك بقوله: (عليكم بحسن الخلق فإن حسن

الخلق في الجنة لا محالة وإياكم وسوء الخلق فإن سوء الخلق في النار لا

محالة) [٤١]٤١.

للقراءة والتأمل

قال (ص): (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) [٤٢]٤٢.

قال أمير المؤمنين (ع): (عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه) [٤٣]٤٣.

قال الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما

فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

بقيت

الأسئلة

السؤال الأول: ما هو مقياس الربح والخسارة؟

السؤال الثاني: كيف نرد على من ظن بأن المال هو السعادة؟

[41]٤١ نهج البلاغة ج ١٠ ص ٣٦٩.

[42]٤٢ مجموعة ورام ج ٢ ص ٢٢٨.

[43]٤٣ نهج البلاغة ج ص.

السؤال الثالث: ما هو أقرب الطرق للحصول على السعادة الحقيقية؟

السؤال الرابع: هات دليلاً من أقوال الرسول (ص) يدل على أن الأخلاق هي طريق

كسب قلوب الآخرين؟

السؤال الخامس: اذكر قصة تدل على أن الصلاة والصوم لا ينفعان إلا بالخلق الحسن؟

السؤال السادس: ما هو سر نجاح الرسول (ص) وانتشار دعوته؟

الدرس الثاني

هل يمكن أن نبدل الرذائل إلى فضائل؟

بعد أن عرفنا في الدرس السابق أهميّة التحلي بمكارم الأخلاق فإن من الطبيعي أن يكون ذلك ممكناً ومقدوراً لمن أراد ذلك واجتهد في الوصول إليها وليس مستحيلاً، هذا كله فيما إذا أراد الشخص التحلي بصفة أخلاقية ممدوحة كالتواضع مثلاً ولم يكن قبل ذلك متصفاً بخلاف هذه الصفة كالتكبر.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل من الممكن لشخص كان متصفاً بصفة أخلاقية رذيلة — لفترة طويلة حتى تعودَ عليها — أن يزيلها تماماً ويبدلها بصفة ممدوحة أو لا يمكن؟ فمن تعودَ الكذب مثلاً لسنوات طويلة ألا يمكنه أن يتجنّبهُ ويعودَ نفسه الصدق؟ أم إنه سيبقى بهذا الخلق المذموم طيلة حياته وكأنّ الكذب أصبح ضرورة لا بدّ له منها وعادةً انطبعت في نفسه لا يمكنه الخلاص منها؟

الأقوال في المسألة:

اختلف الأوائل في إمكان إزالة الأخلاق واستحالتها على أقوال:

القول الأول:

إنه لا يمكن إزالة خلق ترسّخ في قلب صاحبه وتوجد عدة أدلة على ذلك منها:

أولاً: قول الرسول (ص): (إذا سمعتم أن جبلاً زال عن مكانه فصدّقوه وإذا سمعتم برجل

زال عن خلقه فلا تصدّقوه فإنّه سيعود إلى ما جُبل عليه) [١]١، ولذلك قيل في المثل: (يزول

جبل ولا يزول طبع).

ثانياً: قول الرسول (ص): (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية

خيارهم في الإسلام) [٢]٢.

واستشهد أصحاب هذا القول أيضاً بالأبيات الأدبية التالية:

لكلّ داء دواء يستطبّ به إلاّ الحمّاقَة أُعيت من يداويها

قول الشاعر:

وكلّ جراحة فلها دواء وسوء الخلق ليس له دواء

القول الثاني:

إنه يمكن إزالة الخلق السيء من صاحبة، فكما أن النفس تقبل الاتصاف بالكذب فإنها تقبل

الاتصاف بالصدق أيضاً وذلك ليس بمستحيل، والأدلة على ذلك كثيرة وأهمها:

أولاً: إن الشرع (قرآناً وسنة) يؤكد على إمكان ذلك لقوله تعالى: {وهديناهم **النجدين**} [٣]٣،

وقوله تعالى: {ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها} [٤]٤، وقوله تعالى: {إنا هديناها

[1]١ جامع السعادات ج ١ ص ٥٧.

[٢] ٢ بحار الانوار ج ٦٧ ص ١٢١.

السبيل إما شاكراً وإما كفوراً}[٥]٥] والرسول (ص) يقول: (كل مولود يولد على الفطرة،

وإنما أبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه)[٦]٦].

ثانياً: إن العقل يقول: لماذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب؟ أليس في سبيل إصلاح الإنسان

وإسعاده في دنياه وآخرته؟!!

ولماذا أُسّست المدارس والمعاهد والجامعات؟

أليس من أجل التعليم والتأديب، والتخليق، وقمع الفساد، وتقويم الاعوجاج؟

وبالتالي ألا يكون ذلك كله عبثاً ولهوا فيما إذا لم تعمل على تغيير الإنسان من السيء إلى

الحسن ومنه إلى الأحسن؟

ثالثاً: إن وجدان الإنسان وضميره يشهدان على قابلية الخلق للتغيير، فنحن نجد أن

(الشرير) يصير بمصاحبتة (الخير) لمدّة معيّنة خيراً.

رابعاً: التجربة والمشاهدة من عدة نواحي منها:

— من الملاحظ أن بعض الناس قد يعيش في بيئة ضلال وفساد ويمارس الإجرام

والشقاء، وإذا برقيق صالح أو مربّ ينقله إلى الهداية والسعادة فيصبح من الأتقياء البررة.

٣ [٣] البلد آية ١٠.

٤ [٤] الشمس آية (٩-١٠).

٥ [٥] الانسان آية ٣.

٦ [٦] متشابه الفران ج ١ ص ١٥١.

— من الملاحظ أن الإنسان يقدر على نقل طباع الحيوان من النفور إلى الألف ومن

الشراسة والصعوبة إلى السلاسة والانقياد، فنراه يرقص الخيل ويلعب الطير ويُعلم

الجوارح، فإذا كان هذا شأن العجاوات (الحيوانات) والتي لا عقل لها فكيف بالإنسان؟! ألا

يقبل التعديل والتقويم وهو صاحب العقل والإرادة!!!

وأما أحاديث الرسول (ص) التي استدلوا بها على استحالة تغيير الخلق، فقد ردّها الشيخ

النراقي (قدّه) بقوله:

أما الحديث الأول فإنه لا يفيد المطلوب بوجه، وأما الحديث الثاني ففيه:

أولاً: إن هذا الحديث غير ثابت عندنا، وبالتالي فهو غير صحيح ولا يعتمد عليه.

ثانياً: إن قوله (سيعود إلى ما جُبل عليه) لو قلنا بوروده يدل على أن الخلق يزول بحسب

الأسباب الخارجية: من التأديب والتربية والنصيحة وغيرها، فإذا فقدت هذه الأسباب عاد إلى

حاله الأول، مثل الماء إذا وُضع في مكان بارد (كالثلاجة) يبرد وإذا وُضع بعد ذلك في مكان

حار صار حاراً، فبرودة الماء وحرارته ليست ذاتية جبل عليها بل لأسباب خارجية [٧].

كما أن النتيجة التي نستفيدها على القول الثاني إنه ليس من المستحيل على الإنسان أن

يزيل خلقاً من أخلاقه بل بإمكانه أن يغير ذلك ويبدله بخلق آخر.

التحقيق في المسألة:

الحق في المسألة أنها ليست ذات قولين فحسب — كما تقدم — وإنما الأقوال فيها ثلاثة:

قول باستحالة التبدل، وقول بإمكان التبدل، وقول بالتفصيل بين بعض الصفات وبين

بعضها الآخر.

والذي عليه الحق هو التفصيل بين صفات تركبت مع النفس وتأصلت فيها فصارت غريزة

ثابتة فيها وبين صفات لم تكن كذلك، **فالنحو الأول** وهو الصفات التي تركبت مع النفس

وتأصلت فيها لا يمكن أن تزول كالشجاعة والكرم والجبن والبخل فإن هذه الصفات لما كانت

مترتبة مع النفس متأصلة فيها فإنها لا تزول، إذ لم نر شجاعاً تحول إلى جبان ولا جباناً

تحول إلى شجاع ولا كريماً أصبح بخيلاً ولا بخيلاً أصبح كريماً، أما **النحو الثاني** وهي

الصفات التي اكتسبها الفرد من عادات قبلية أو من بيئة اجتماعية أو جهل ونحوه فإنها تزول

إذا زال سببها، فإذا انتقل الفرد المتصف بها من مجتمع متحلل خلقياً إلى مجتمع متكامل

فسوف يتغير من صفة إلى أخرى، وهكذا من يمارس خلقاً شاذاً لكونه جاهلاً فإنه إذا تعلم

فسوف يغيره العلم ويهذب سلوكه، وهذا أمر يشهد به الوجدان.

وبالتالي فما ورد من الأخبار عن الرسول (ص) وأهل بيته (ع) مما يستفاد منه عدم إمكان

التبدل — مع فرض صحته — يحمل على **النحو الأول** من الصفات، وما ورد من الأخبار

عنهم (ع) مما يستفاد منه إمكان التبدل فهو يحمل على **النحو الثاني** من الصفات.

هذا ما توصل إليه التحقيق في المسألة، وسوف نتحدث في الدرس الثامن من هذا القسم عن

كيفية التخلص من العادات الذميمة التي يمكن التخلص منها.

الجهاد الأكبر:

روي أن الرسول (ص) لما رجع من إحدى غزواته قال: **(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى**

الجهاد الأكبر) [٨]٨، وقد استغرب الصحابة هذا القول من الرسول (ص) الذي لا ينطق عن

الهُوى، فأى جهاد أكبر من حمل السلاح وسيل الدماء وتطاير الرؤوس والأيدي؟!!

لكن الرسول (ص) أفصح عما يقصده وما يعنيه وأن الجهاد في المعركة يتوقف على جهاد

أكبر منه وهو جهاد **(النفس)**، فإذا كان المسلم في المعركة يجاهد أناساً ويقارعهم بالسيف،

فإنه في سائر الأحوال يجاهد **(النفس الأمارة بالسوء)** والتي تسول له بالمعصية وترين له

الخبائث، فإذا انتصر عليها وأصلحها فإنه سينتصر في المواطن الأخرى، وإن انتصرت هي

عليه فلن ينتصر على غيرها، يقول أمير المؤمنين (ع): **(ميدانكم الأول أنفسكم فإن قدرتم**

عليها فأنتم على غيرها أقدر، وإن عجزتم عنها فأنتم على غيرها أعجز فجربوا معها الكفاح

أولاً) [٩]٩.

أشدد حيازيمك:

٨ [٨] وسائل الشيعة كتاب الجهاد الحديث الاول من باب وجوب جهاد النفس.

٩ [٩] نهج البلاغة.

إذا أراد الإنسان الوصول إلى المقامات الرفيعة والهجرة إلى الحق تعالى، فعليه أولاً تخطي

هذه العقبة الكؤود اعني النفس، فيطوي معها مراحل الجهاد المتواصل وليشدد حيازيمه ولا

يغفل، إذ من الممكن في لحظة واحدة يسقط في مزلق مهلك فيعجز بعدها من إنقاذ نفسه فيكون

من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وحقّت عليهم كلمة العذاب والعياذ بالله.

طلب العون من الله:

لما كان جهاد النفس ليس سهلاً فعلى العبد الاستغاثة بالخالق تبارك وتعالى والتوسل إليه

في الخلوات ليكون معه في هذا الطريق الوعر والذي فشل الكثير فيه وليستشفع برسول الله

(ص) وأهل بيته (ع) حتى يفيض الله عليه التوفيق ويمسك بيده عن الوقوع في هذا المزلق

الخطير، وعلى العبد أن يتوجه في جميع صلواته بقلبه إلى ربّه حينما يقول: **{اهدنا الصراط**

المستقيم} [١٠]، ولذا نرى خيار أولياء الله يشكون هذه النفس إلى الله، وقد رسم الأئمة

(ع) لشيعتهم طريق المناجاة لله تعالى ومن ذلك مناجاة الإمام السجاد (ع) التي يقول فيها:

(إلهي إليك اشكوا نفساً بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة،

ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل،

طويلة الأمل، إن مسّها الخير تمنع، وإن مسّها الشرّ تجزع، ميّالة إلى اللّعب واللّهو مملوءة

بالغفلة والسّهو تُسرّع بي إلى الحوبة، وتسوّفني بالتّوبة... الخ) [١١] [١١].

ويقول أمير المؤمنين (ع) في كلام له: (.. نحمده على آلائه ونستعينه على هذه النفوس

البطاء عمّا أمرت به السّراع إلى ما نهيت عنه..) [١٢] [١٢].

للقرأة والتأمل

قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ [١٣] [١٣]،

وقال تعالى أيضاً: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ [١٤] [١٤].

قال الشاعر:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه ليس التفاخر بالعلوم الفاخرة

من لم يهذب علمه أخلاقه لم ينتفع بعلومه في الآخرة

وقال آخر:

١١ [١١] مناجاة الشاكين.

١٢ [١٢] ميزان الحكمة ج ٤ ص ٣٣٤.

١٣ [١٣] السجدة آية ١٧.

١٤ [١٤] العنكبوت آية ٦٩.

هي النفس فاحملها على ما

تعش سالماً والقول فيك جميل

يزينها

الأسئلة

السؤال الأول: استدل القائلون باستحالة تبدل الأخلاق بدليلين اذكرهما؟

السؤال الثاني: توجد أدلة على إمكان إزالة الخلق السيء، أذكر اثنتين منها؟

السؤال الثالث: روي عن الرسول انه قال: إذا سمعتم أن جبلاً زال عن مكانه فصدقوه وإذا

سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه فانه سيعود إلى ما جُبل عليه هل هذا الحديث صحيح

ولماذا؟

السؤال الرابع: ما هي الصفات التي يمكن تبديلها والصفات التي لا يمكن تبديلها؟

السؤال الخامس: ماذا يقصد الرسول بقوله (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)؟

توجيه:

حاول أن تحفظ مناجاة الإمام السجاد (ع) التي يشكو فيها النفس إلى الله.

الدرس الثالث

معرفة النفس

من عرف نفسه فقد عرف ربه:

بعد أن أشرنا إلى التفصيل في إمكان تبديل الأخلاق السيئة بأخلاق حسنة وعدمه؛ يجب أن لا ننسى بأن تزكية النفس وتهذيبها بكمارم الأخلاق متوقف على (معرفة النفس)، فما هي هذه النفس؟ ومِمَّ تتكون؟ وما هي صفاتها؟ وكيف نصل إلى جذورها ونغوص في أعماقها؟

وعندما نعرف (النفس) ولو بمعرفة صفاتها فإنه من السهل علينا حينئذٍ الدخول من الباب

المناسب لتزكيتها وتهذيبها، بخلاف ما إذا جهلنا هذه (النفس) فمن الصعب — إن لم يكن

مستحيلاً — تزكيتها وتهذيبها، وهذا أشبه شيءٍ بالطبيب فإنه لا يقدر على وصف الدواء لهذا

العضو المصاب بالداء إلا بعد معرفة مكوناته وصفاته وخصائصه.

وكذلك الميكانيكي لا يمكنه إصلاح هذه السيارة أو تلك إلا بعد معرفة مركباتها.

والخلاصة: إن الطريق الأقرب إلى مكارم الأخلاق والموصل إلى معرفة الله تعالى هو

(معرفة النفس)، يقول الرسول (ص): **(من عرف نفسه فقد عرف ربه)** [١٥] [١٥].

ما هي النفس؟؟

عرّفَ الحكماء النفس بأنها: [جوهر] ١٦ [١٦] **ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته، وهو**

حقيقة الإنسان وذاته [١٧] [١٧]، وهذه النفس لها أسماء من هذه الجهة، فقد تسمى [روحاً]

١٥ [١٥] البحار ج ٢ ص ٣٢.

١٦ [١٦] يقسم الفلاسفة الماهيات الممكنة الوجود الى قسمين: الجوهر والعرض، حيث ان الماهية التي لا تحتاج في وجودها إلى موضوع ولم تكن صفةً لموجود آخر تسمى (الجوهر) كالجسم والعقل والنفس، وأما التي تحتاج إلى موضوع وكانت صفةً لموجود آخر تسمى (العرض) كاللون والرائحة

لتوقف حياة البدن عليها، وقد تسمى [عقلاً] لإدراكها للمعقولات، وقد تسمى [قلباً] لتقلبها في

الخواطر ولا تطلق على القطعة الصنوبرية من اللحم الموجودة في أسفل الصدر لأن هذه

القطعة تراها الحواس وتدرکہا بخلاف النفس.

صفات النفس:

إن للنفس صفات وخصائص تعرف بها وهي:

أولاً: النفس مجردة، بمعنى أنها تُدرک بالذهن لا بالحواس، فإن الحواس وهي [العين —

الأذن — الأنف — اللسان — اليد]، إذا أدركت شيئاً فإنه يسمى (مادة) كالأجسام مثلاً، وإذا

لم تدرکہ فإنه يسمى (مجرداً) كالهواء والملائكة، فليس له خصائص الأشياء المادية..

والنفس من القسم الثاني (المجرد) الذي لا تدرکہ الحواس ولا تراه.

ثانياً: النفس باقية غير فانية [١٨] [١٨] فهي تنتقل من حالة إلى أخرى ومن عالم إلى عالم

آخر، بخلاف البدن فإنه يفنى ويضمحل ويتلاشى، وبقاء النفس ودوامها إما أن يكون في

السعادة والبهجة وذلك إذا اتصفت بمحاسن الأخلاق وشرائف الصفات، وإما أن تكون في

الشقاء والعذاب وذلك إذا اتصفت برذائل الأخلاق ومساوئها لأن النعيم والعذاب من جنس

والحرارة وللاستزادة أكثر يمكن الرجوع إلى كتاب (المنهج الجديد في تعليم الفلسفة لليزدي) ج ٢ ص

١٢٣.

١٧ [١٧] جامع السعادات ج ١ ص ١٦.

١٨ [١٨] لا يتوهم متوهم ان عدم فناء النفس يشبه عدم فناء الله اذ ان عدم فناء الله (ذاتي) لانه

واجب الوجود واما عدم فناء النفس فهو (عرضي) لانه ممكن الوجود.

العمل، يقول تعالى {ووجدوا ما عملوا حاضراً} ١٩ [١٩] فليُنظر أحدنا أيَّ الطريقين يسلك

للخلود؟

القوى الثلاث للنفس:

من أهم ما يجب معرفته حول النفس هو ما ذكره العلماء المتخصصون في هذا المجال من أن للنفس قوى ثلاث، وأن كل أفعال وأخلاق الإنسان — حسنة أو سيئة — تصدر وتتبعث في الحقيقة عن إحدى هذه القوى الثلاث، وستعرف هذا لاحقاً بصورة أوضح، وأما القوى فهي:

الأولى: القوة العقلية (الملكية) وهذه القوة التي أودعها الله في بني آدم واعتبرها اشرف

القوي وأولها إيجاداً لقول الرسول (ص): (أول ما خلق الله العقل) ٢٠ [٢٠]، وبالعقل يعرف

الإنسان ربه والمنعم عليه ويكون حجة باطنة عليه، كما أن الثواب والعقاب متوقف على العقل

كما جاء عن الإمام الباقر (ع): (لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر

فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك إياك أمر وإياك أنهى وإياك أثيب وإياك

أعاقب) ٢١ [٢١].

١٩ [١٩] الكهف آية ٤٩ .

٢٠ [٢٠] ميزان الحكمة ج ٣ ص ٢٠٣٢ .

٢١ [٢١] ميزان الحكمة ج ٣ ص ٢٠٣٤ .

وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل النفس ويقيدها ويمسك بعنانها من أن تجمح، يقول أمير

المؤمنين (ع): **(النفوس طليقة لكن أيدي العقول تمسك أعتها عن النحوس) [٢٢] ٢٢.**

الثانية: القوة الغضبية (السبعية) وهذه القوة من النعم الإلهية التي يمكن للإنسان بواسطتها

الحفاظ على نفسه من الأخطار المحدقة به والحفاظ على ماله من السلب وعلى عرضه من

الهتك، وبها يقام العدل ويدفع الظلم ويؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولولا وجود هذه

القوة في باطن الإنسان لاختل النظام وعمت الفوضى أرجاء الأرض ولما انتصف للمظلوم من

الظالم، يقول تعالى: **(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل**

على العالمين) [٢٣] ٢٣.

وإن الجهاد مع النفس التي هي ألدّ أعداء الإنسان لا يكون إلا بهذه القوة الشريفة فيما إذا

كرست بصورة معتدلة وأما إذا أسيء استخدامها فإنها ستجر الولايات للإنسان وتفتح أمامه

جميع أبواب الشرور كما ورد عن الصادق (ع): **(الغضب مفتاح كل شر) [٢٤] ٢٤.**

وسميت هذه القوة سبعية لإتصاف السباع بها غالباً في الدفاع عن نفسها.

الثالثة: القوة الشهوية (البهيمية) وهي واقع فطري وتكويني ينطلق من تركيب الإنسان

الفيسيولوجي، والخالق أودع هذه القوة في ابن آدم لحكمة عظيمة إذ لا يتم حفظ الجنس

٢٢ [٢٢] ميزان الحكمة ج ٣ ص ٢٠٣٩.

٢٣ [٢٣] البقرة آية ٢٥١.

٢٤ [٢٤] ميزان الحكمة ج ٣ ص ٢٢٦٤.

البشري والإبقاء على نوعه الا بواسطتها فهي ضرورة كامنة في جميع النفوس بما فيهم

الأنبياء العظام (ع).

هذه هي القوى الثلاث للنفس وقد أوضحنا أن القوة الغضبية والقوة الشهوية من الممكن أن تكون من الجنود الرحمانية وتؤديان إلى سعادة الإنسان وتوفيقه فيما إذا انقادت للعقل وللأوامر الإلهية، كما أن من الممكن أن تكونا من الجنود الشيطانية فيما إذا تركتا وأطلق لهما العنان وسيوضح هذا لنا لاحقاً بصورة أوضح.

تنبيه: قد أضاف بعض العلماء إلى هذه القوى الثلاث قوة رابعة وهي (القوة الوهمية الشيطانية)، وباعتبار أن علماء آخرين رأوا بأنها ترجع في حقيقتها إلى القوة الثانية (الغضبية) فإننا سوف نكتفي بالتقسيم الثلاثي.

وظائف القوى الثلاث:

لكل قوة من هذه القوى الثلاث أمور تصدر عنها وهي عبارة عن وظائفها التي تقوم بها وتتميز كل واحدة منها عن الأخرى من خلال هذه الوظائف وهي كالتالي:

— **أما القوة العقلية:** فوظيفتها الطبيعية لها هي:

إدراك الحقائق من الأمور والتمييز بين الخيرات والشرور والأمر بالأفعال الجميلة والنهي عن الصفات الذميمة، ولا يقال للإنسان انه عاقل إلا إذا دله عقله على الخير وأبعده عن الشر كما ورد في الحديث: **(العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان)** [٢٥]٢٥.

— **أما القوة الغضبية:** فوظيفتها الطبيعية لها هي:

إبراز وإصدار أفعال السباع، كالغضب والتوثب على الآخرين والتسلط عليهم والانتقام منهم.

— **أما القوة الشهوية:** فوظيفتها الطبيعية لها هي:

إصدار أفعال البهائم كالأكل والشرب والجماع والنوم ونحوها.

حلبة الصراع بين القوى الثلاث:

تمثل كل قوة من هذه القوى الثلاث بطلاً في حلبة واحدة فكل قوة تريد أن تبرز أفعالها وصفاتها وتسيطر على بقية القوى، فالصراع دائم ومستمر فلا يوجد توافق بينها، وأي هذه القوى الثلاث انتصرت على البقية فتكون لها السيطرة والغلبة، وقد تسيطر قوتان من هذه القوى على القوة الثالثة في بعض الأحيان فتكون لهما الغلبة على الثالثة، ومثل اجتماع هذه القوى كممثل اجتماع حكيم أو ملك مع كلب وخنزير في حلبة واحدة وكان بينهم نزاع فالحكيم أو الملك يمثل القوة العقلية لكونه حكيماً عاقلاً والكلب يمثل القوة الغضبية لكونه سبياً ضارياً،

والخنزير يمثل القوة الشهوية لكونه أكلًا كثيرًا " السفاد " [٢٦]٢٦] وأيهما صار غالباً كان

الحكم لهُ.

فكذلك القوى الثلاث الموجودة عند الإنسان بينها تنازع وتدافع دائم.

أهداف القوى الثلاث في الحلية:

— القوة العقلية تحاول أن تثبت جدارتها وذلك بقوتها النورانية وبصيرتها النافذة فتوضح

الحقائق وتحاول أيضا أن تسلط إحدى القوتين على الأخرى لتتنازعا وبالتالي تشغلان عنها.

— والقوة الغضبية تحاول أن تدعو إلى الظلم والإيذاء والعداوة والبغضاء والمكر والخداع

والحيلة وأمثالها لكي تسيطر على القوى الأخرى.

— وأما القوة الشهوية تدعو إلى المنكر والفواحش والإكثار من الأكل والجماع وأمثال هذه

الأمر وذلك لكي تتغلب على العقل وتهمش القوة الغضبية جانباً.

ويدوم الصراع بين هذه القوى حتى ترفع إحداها راية النصر وتعلن الفوز على سائر

القوى وتستلم في النهاية الوسام المناسب لها.

النفس المطمئنة والأمانة واللوامة:

إذا انتصرت **(القوة العقلية)** في نفس الإنسان على القوتين الأخريتين وأصبحتا منقادتين لأوامر **(القوة العقلية)** ونواهيها ولم يكن لهما أي مقاومة ومدافعة، إذا كان كذلك فإن النفس حينئذٍ تسمى بـ**(المطمئنة)**، والسبب في ذلك أنها ارتقت وسمت إلى عالم القدس وتزهرت عن الأرجاس وواظبت على الطاعات واتصفت بمكارم الأخلاق فاستحقت أن يخاطبها خالقها تعالى بقوله: **يا أيُّها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي**{٢٧}[٢٧].

وأما إذا انهزمت **(القوة العقلية)** وأذعنت لأوامر بقية القوى من دون مدافعة أو مقاومة منها، فعندئذٍ تسمى النفس بـ**(الأمارة)** والسبب في ذلك أنها أصبحت تأمر بالذات والشهوات الحسية وصارت منبع الأخلاق الدنيئة والأفعال الرديئة، وهي التي عناها البارئ تعالى بقوله: **{إن النفس لأمارة بالسوء}**{٢٨}[٢٨].

وأما إذا دام التنازع وأستمر الصراع بين هذه القوى دون نتيجة، فحينئذٍ نجد أن النفس تميل إلى الخير تارة وإلى الشر تارة أخرى، وفي حالة ميلانها إلى الشر والمعاصي فإنه

٢٧ [٢٧] الفجر آية (٢٧-٣٠).

٢٨ [٢٨] يوسف آية ٥٣.

يحصل لها ندم ولوم، فتستغفر من ذنبها وتعود إلى ربها، وعندئذ تسمى النفس بـ{اللوامة}

والتي أقسم الله تعالى بها فقال: {ولا أقسم} [٢٩] [بالنفس اللوامة] [٣٠].

حالات ثلاثٍ لنفسٍ واحدة:

نود أن نلفت النظر إلى أن هذه النفوس الثلاث (المطمئنة – الأمارة – اللوامة) ليست

موجودة بثلاث وجودات، بل هي نفس واحدة ولكنها تختلف باختلاف الحالات التي عرفناها

كما لا يخفى.

للقراءة والتأمل

إن أوضح وأجلى مصداق للنفس المطمئنة هو الإمام الحسين (ع) فقد كان وجهه المبارك

يوم العاشر من المحرم يزداد إشراقاً ونوراً مع كل مصيبة ونازلة، إنه يعني الانتصار للنفس

المطمئنة على النفس الأمارة والاطمئنان بالقضاء والقدر.

— من دعاء الإمام السجاد عليه السلام: (إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك

جاحد ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرض ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت

وسوَّلت لي نفسي وغلبني هواي وأعاني عليها شقوتي وغرني سترك المرخي عليَّ فقد

٢٩ [٢٩] ولا أقسم: بمعنى أقسم، و (لا) زائدة.

٣٠ [٣٠] القيامة آية ٢.

عصيتك وخالفتك بجهدِي، فالآن من عذابك من يستنقذني ومن أيدي الخصماء غداً من

يخلصني وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني؟! [٣١] ٣١].

الأسئلة

السؤال الأول: ما هو الأمر الذي يتوقف عليه تركية النفس، والتحلي بمكارم الأخلاق؟

السؤال الثاني: ضع علامة (صح) في المكان المناسب مما يلي:

— تسمى النفس قلباً لأنها عبارة عن قطعة اللحم الصنوبرية في أسفل

الصدر..... []

— النفس مجردة ولا تدركها الحواس الخمس..... []

— عندما يموت الجسم تموت النفس معه وتقنى... []

السؤال الثالث: عدد قوى النفس الثلاث؟ وتكلم عن إحداها باختصار؟

السؤال الرابع: ما هي وظائف قوى النفس الثلاث؟

السؤال الخامس: متى تسمى النفس مطمئنة، وأمارة، ولوامة؟

الدرس الرابع

الأصول الأربعة للفضائل

ضرورة القوى الثلاث:

قد يتوهم البعض أن النفس لا داعي لأن تتركب من هذه القوى الثلاث الأنفة الذكر، بل

يكفي أن يوجد لها خالقها بقوة واحدة فقط وهي (القوة العقلية) لكي يسهل اتصافها بمكارم

الأخلاق وذلك لأن بقية القوى هي عبارة عن شر محض وشقاء دائم وبلاء على الإنسان ولا

منفعة من وراءها أبداً.

وهذا التوهم باطل وذلك لأن الإنسان بأمس الحاجة إلى هذه القوى الثلاث بأجمعها وليس

إلى القوة العقلية فحسب؛ إذ كيف يجلب الإنسان لنفسه المنفعة - كالأكل والشرب واللبس

والزواج والتناسل والتي يعتبر بعضها أساس بقاء الجنس البشري على وجه الأرض - لولا

وجود (القوة الشهوية) في نفسه؟ وكيف يستطيع الدفاع عن نفسه وعن عرضه وماله من

الأعداء ما لم تتوفر لديه (القوة الغضبية)؟

والنتيجة: إن الإنسان بأمس الحاجة إلى وجود هذه القوى الثلاث للنفس وليس إلى وجود

قوة واحدة فقط، بل إن سعادته تكمن من خلالها، وبالتالي فإن وجود هذه القوى بأجمعها يعد

خير وبركة وسعادة لا أنه شر محض وشقاء كما قد يتوهم، وقد بينا في الدرس السابق فلسفة

وجود كل قوة من القوى الثلاث فراجع.

لا إفراط ولا تفريط:

يقول الإمام الصادق (ع): (واعلم إن لكل شئ حدا فإن جاوزه كان سرفاً وان قصر عنه

كان عجزاً) [١].

سبق وأن أشرنا إلى أن أفعال الإنسان صادرة عن إحدى هذه القوى الثلاث، فتكون مرة جميلة ومرة قبيحة وذلك فيما إذا كانت صادرة عن قوة واحدة فقط، أما إذا اتحدت هذه القوى الثلاث (العقلية والغضبية والشهوية) فسوف يصدر نوع خاص من الأفعال تختلف عن تلك الأفعال التي كانت صادرة عن واحدة فقط، وهذا هو المطلوب.

لذلك كان من الضروري على الإنسان الموازنة بين هذه القوى الثلاث، فلا يميل إلى جانبي الإفراط والتفريط لأن ذلك يؤدي إلى الزيادة أو النقصان وبالتالي إلى السقوط والخسران.

أمّهات الفضائل:

إن الفضائل الرئيسية في الإنسان والتي يسمونها (أمّهات الفضائل) والتي ترجع إليها جميع

الأخلاق الفاضلة، هي أربع أصول يُعبرُ عنها بالملكات - بفتح اللام - وهي: (العفة

والشجاعة والحكمة والعدالة).

وهذه الأصول والملكات الأربعة لم تأت اعتباراً وصدفة، وإنما أنتت نتيجة لسلوك طريق الاعتدال والوسط في كل قوة من القوى الثلاث وبالتالي نتيجة للموازنة والامتزاج بين القوى بشكل عام، وعدم الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط.

ولننظر كيف تحصل وتتكون هذه الأصول والملكات في نفس الإنسان من خلال ما يلي:

الأصل الأول [العفة]:

لو نفذ الإنسان أوامر (القوة الشهوية) بشكل مطلق وأطاعها في شهوة الأكل والشرب والنوم والجماع، ولبى رغبتها وأعطاهما كلما تشتهي، فسوف يتصف بحالة (مذمومة) تسمى بـ [الشرة] وهي نتيجة الميل إلى جانب (الإفراط) في هذه القوة.

وإذا عصى الإنسان جميع أوامر هذه القوة بشكل مطلق ولم يلب رغباتها حتى الضرورية منها، بل حاول كبتها عن كل ما تريد وذلك بأن منعها مثلاً من الأكل والنوم والزواج مطلقاً وما شابه ذلك من الأمور المهمة لنوع الإنسان، فسوف يتصف بحالة (مذمومة) تسمى بـ [الخمود] وهي نتيجة الميل إلى جانب (التفريط) في هذه القوة.

وأما إذا سلك الإنسان حد الاعتدال والوسط في هذه القوة وذلك باستعمالها كما ينبغي وبالمقدار المعقول والمتوازن وعلى قدر الحاجة، فسوف يتصف بحالة (ممدوحة) تسمى بـ (العفة) وهي أول أصل من أصول الأخلاق الفاضلة.

ولذا حذر الإسلام من حالتي الإفراط والتفريط في القوة الشهوية سواء في الأكل أو الجنس

أو النوم، ففي التحذير من حالة الإفراط بالنسبة للأكل يقول الرسول (ص): **(لا تميتوا القلوب**

بكثرة الطعام والشراب فان القلوب تموت كالزراع إذا كثر عليه الماء)^[٢].

وقال (ص): **(ان الشيطان ليجري في ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع**

والعطش)^[٣].

ويقول لقمان لولده: **(إذا امتلات المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن**

العبادة)^[٤].

ويقول المسيح عيسى ابن مريم (ع): **(يا بني إسرائيل لا تكثروا الأكل فانه من أكثر الأكل**

أكثر النوم ومن أكثر النوم أقل الصلاة ومن أقل الصلاة كتب من الغافلين)^[٥].

فالإفراط في الأكل مذموم لما يؤدي من مضار روحية وجسدية.

وواضح ان جانب التفريط أي الجوع الشديد مذموم أيضا ولهذا ورد النهي من الشارع

المقدس عن صوم الوصال والإضراب عن الطعام وغير ذلك مما يضر بالفرد، وحد

الاعتدال في ذلك بيّنه الله في قوله تعالى: **{وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}**^[٦].

وكذلك ورد التحذير من الإفراط والإسراف في شهوة الجنس لما في ذلك من آثار غير

محمودة وفي هذا المجال نجد الحديث المروى عن أمير المؤمنين (ع): **(من أراد البقاء ولا**

بقاء فليقل غشيان النساء) [٧]٧، والسر في ذلك أن هذا الأمر قد يؤدي إلى الابتعاد عن

طريق الآخرة وسيطرة القوة الشهوية على القوة العقلية فيكون العقل خادماً بعد أن جعله الله

مخدوماً.

وأما التفريط في هذه الشهوة (الجنس) والامتناع عنها كلياً فقد اعتبره الإسلام من الشذوذ

لأنه خروج عن الطبيعة والفطرة التي أودعها الله في ابن آدم، وفي نفس الوقت يعد هذا

التصرف كبتاً لطاقة كامنة في النفس وهذا الكبت سيعود بعواقبه الوخيمة على صاحبه، يقول

(ص): **(لا رهبانية في الإسلام) ٨ [٨].**

ولذا حث الإسلام على الاعتدال في هذه القوة بين الإفراط والتفريط وذلك عن طريق

الزواج المشروع فهو الأسلوب السليم والأمثل حيث يقول الرسول (ص): **(من استطاع منكم**

الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) [٩]٩.

ويقول (ص): **(من أحب أن يلقى الله تعالى طاهراً مطهراً فليلقه بزوجة)** [١٠]١٠.

وهكذا الكلام ينطبق على النوم فالاعتدال فيه بين الإفراط والتفريط هو المطلوب.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا معنى الإفراط والتفريط المذمومين في القوة الشهوية، كما عرفنا الاعتدال الممدوح والذي يطلق عليه (العفة).

الأصل الثاني [الشجاعة]:

لو نفذ الإنسان جميع أوامر (القوة الغضبية) ولبى رغباتها دون قيد وأطلق لها العنان، فيغضب لأتفه الأسباب ويضرب هذا ويشتم ذاك وينتقم من الناس ويكيد بهم ويتوثب عليهم بأنواع الأذى والمكر، فسوف يكون متصفاً بحالة (مذمومة) تسمى بـ [التهور] وهي نتيجة الميل إلى جانب (الإفراط) في هذه القوة.

وإذا لم يعتبر بهذه القوة وإنما ألغى أوامرها بشكل مطلق فبترك الغضب كلياً ويشعر بالخوف من كل شيء حتى من ظله ولا يدافع عن نفسه حتى لو نهب ماله أو هتك عرضه، ويرتعد من ذكر السيف أو البندقية ويسالم الأعداء.. إلى غير ذلك، فحينئذ يكون متصفاً بحالة (مذمومة) تسمى بـ [الجبن] وهي نتيجة الميل إلى جانب (التفريط) في هذه القوة.

وأما إذا سلك الإنسان حد الاعتدال والوسط في هذه القوة بأن استعملها في وقت الحاجة وبالمقدار الذي ينبغي ولم يخضع لها في كل حال، فسوف يكون متصفاً بحالة (ممدوحة)

تسمى بـ (الشجاعة) هي ثاني أصل من أصول الأخلاق الفاضلة.

وفي هذا الصدد أولى الإسلام هذا الجانب عناية كبيرة من أجل المحافظة على حد الاعتدال

في القوة الغضبية فلا إفراط ولا تفريط، فاعتبر الميل إلى جانب الإفراط في هذه القوة من

المهلكات فحذر منه، يقول تعالى: **{ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}** [١١] ١١].

وفي ذم الغضب يقول الرسول (ص): **(الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل**

العسل) [١٢] ١٢]، ولا شك أن الرسول (ص) يقصد بالغضب هنا الغضب في غير محله والذي

هو **(التهور)** إذ أن مفسده كثيرة فقد يسب ويشتم ويهتك الحرمات ويقتل النفس المحترمة

ويفتري على الآخرين بما هم منهم بُراء، وقد روي أن الصادق (ع) قال كان أبي يقول: **(أي**

شئ أشد من الغضب؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف

المحصنة) [١٣] ١٣].

إذا كانت حالة الإفراط مذمومة وتؤدي إلى تلك المفسد فإن حالة التفريط في هذه القوة

أيضا مذمومة ولها مفسد كثيرة من الذل والهوان والرضا بالعار والفضيحة والأسر بيد

الآخرين وتعطيل حدود الله وعدم الدفاع عن النفس والدين والمداهنة في الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر.. الخ، ولذا قيل [من أستغضب فلم يغضب فهو حمار].

والاعتدال بين الإفراط والتفريط هو المطلوب فيغضب في الحالات التي تستدعي الغضب

عقلا وشرعا وأما في الحالات الأخرى فلا، وبهذه الصورة تبرز الحالة المحمودة وهي

(الشجاعة).

الأصل الثالث [الحكمة]:

لو تجاوز الإنسان حد الإستقامة في **(القوة العقلية)** بأن استخدمها في المكر والخداع أو

استخرج أمورا دقيقة غير مطابقة للواقع أو ادعى حكمة باطلة أو عقيدة فاسدة، أو استنتج

معادلة خاطئة أو قضية مخالفة للبديهيات فإنه سيتصف بحالة **(مذمومة)** تسمى بـ

[الجربزة] [١٤] [١٤] وهي نتيجة الميل إلى جانب **(الإفراط)** في هذه القوة.

وإذا جمّد الإنسان هذه القوة وجعلها خاملة، ولم يكلفها حتى عن إدراك أبسط الأمور وأجلى

الحقائق وأوضح البديهيات، ولم يستخدمها فيما يتصل بالعلم مطلقاً، وأبقاها في ظلمة

الجهل، فإنه سيتصف بحالة **(مذمومة)** تسمى بـ **[البلادة]** وهي نتيجة الميل إلى جانب

(التفريط) في هذه القوة.

وأما إذا سلك الإنسان حد الاعتدال والوسط في هذه القوة بأن استعملها في حل المعادلات

وإقامة الأدلة والبراهين للوصول إلى حقائق الأمور وسخرها للتمييز بين الحق الباطل والخير

والشر، فحينئذ يكون متصفاً بحالة (ممدوحة) تسمى بـ [الحكمة] وهي ثالث أصل من

أصول الأخلاق الفاضلة.

ولذا فالملاحظ واضحاً أن استعمال الفكر في غير مورده أو في الموارد التي لا ينبغي

استعماله فيها يسمى بـ (السفه والحُمق) وكأمثلة على ذلك: السحر والطلسمات والشعوذة

والكهانة والتنجيم فكل هذه العلوم يمكن تعلمها ولكن ما هي ثمارها؟ وأي نتائج سينتج منها؟ إنه

الكذب والدجل والتفريق بين الأخ وأخته، أو يكون الهدف من العلم: الجدل والمراء والممارسة

أو الوصول إلى المناصب الدنيوية أو لكي يشار إليه بالبنان فيصاب بالغرور والعجب وكل

هذا من أسباب الهلكة، بل ربما أدى تعلم بعض العلوم إلى مخالفة البديهيات والأوائل العقلية

وإفساد العقائد الحقة، وهذا كله نتائج الميل إلى جانب الإفراط في هذه القوة، وفي الدعاء

المشهور: (أعوذ بك من علم لا ينفع) [١٥].

وأما الميل إلى جانب التفريط ليس بأقل ضرراً من الجانب الآخر، ونعني بالتفريط في هذه

القوة: خلو النفس عن العلم وتعطيل القوة الفكرية في الموارد التي ينبغي استعمالها فيها مع

الإلتفات إلى ذلك والثبات عليه، وهذا ما يسمى بـ (البله والبلادة) وهذا من المهلكات العظيمة

التي تجر الأفراد والأمم إلى الويلات، يقول النبي (ص): (أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو

محباً لهم ولا تكن الخامس فتهلك) [١٦].

ويقول أمير المؤمنين (ع): (أخذ عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالث فتعطب) [١٧] [١٧].

إذاً فحالتنا الإفراط والتفريط مذمومتان ومهلكتان، يقول أمير المؤمنين (ع): (قصم ظهري

رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يعتر الناس بتنسكه والعالم ينفهم

بتهتكه) [١٨] [١٨].

وضبط هذه القوة والاعتدال فيها يتم بتعلم العلم النافع وتعليمه لمن يستحقه والابتعاد عن

الجهل ومالا ينفع من العلم، وقد روي ان رسول الله (ص) دخل المسجد فإذا جماعة قد أطافوا

برجل فقال: ما هذا؟ فقيل: علامة، فقال: وما العلامة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنسب العرب

ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، فقال: ذاك علم لا يضر من جهله ولا ينفع من

علمه، ثم قال: (إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهن فهو

فضل) [١٩] [١٩] [٢٠] [٢٠].

وحالة الاعتدال المحمودة في هذه القوة تسمى بـ (الحكمة).

الأصل الرابع [العدالة]:

إن لكل واحدة من قوى النفس وغرائزها حقوق يجب أن تُوفى إليها كاملة غير منقوصة،

ولكل واحدة منها — في نفس الوقت — ميول شاذة يجب إن يُضرب من دونها ألف حجاب

وحجاب، ولا يتم ذلك إلا بضبط النفس والتي هي عبارة عن ملكة (العدالة) وهي إعطاء كل

ذي حق حقه من هذه القوى، ووضعها في موضعه الذي ينبغي له؛ وهذه الملكة (العدالة)

تحصل نتيجة لإجتراح وإمتزاج الثلاث الملكات (العفة والشجاعة والحكمة) مع بعضها

البعض.

ويسمى جانب (الإفراط) فيها [ظلماً] وجانب (التفريط) فيها [انظلاماً].

والنتيجة: كل الفضائل الأخلاقية بلا إستثناء هي فروع تنشأ من هذه الأصول الأربعة،

فالجود والحياء والورع والصبر والشكر والغيرة والنصيحة والكرامة والتواضع والتودد والحلم

والمروءة.. إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة، هي فروع لهذه الملكات والأصول الأربعة.

للقراءة والتأمل

قال أمير المؤمنين (ع): (إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب، وخص

الحيوانات بهما دونه، وشرف الإنسان بإعطاء الجميع، فإن إنقادت شهوته وغضبه لعقله

صار أفضل من الملائكة لوصوله إلى هذه المرتبة مع وجود المنازع، والملائكة ليس لهم

مزاحم] ٢١ [٢١].

الأسئلة

السؤال الأول: هل وجود القوة الشهوية والغضبية في النفس ضروري؟ ولماذا؟

السؤال الثاني: ما هي أمهات الفضائل الأخلاقية؟

السؤال الثالث: تكلم عن حالة الإفراط والتفريط والاعتدال في أحد القوى الثلاث؟

السؤال الرابع: أوصل بين العمود (أ) بما يناسبه من العمود (ب):

(ب)	(أ)
جانب التفريط في القوة الغضبيه	جانب الإفراط في القوة الشهوية
حالة الشره	حالة التهور
جانب الإفراط في القوة العقلية	حالة التفريط في القوة الشهوية
حالة الخمود	جانب التفريط في القوة العقلية
جانب الإفراط في القوة الغضبية	حالة الجريزه
حالة البلادة	حالة الجبن

السؤال الخامس: كيف تكونت ملكة العفة وملكة العدالة؟

الدرس الخامس

جذور الأخلاق ودوافعها

في الدرس السابق كان الكلام حول الأصول الأربعة (العفة، الشجاعة، الحكمة، العدالة) وأنها هي الأساس للأخلاق الفاضلة، كما عرفنا أيضاً أن كل واحدة من هذه الفضائل هي حد وسط بين الإفراط والتفريط في الغرائز والقوى النفسية.

وفي هذا الدرس نرى من المناسب جداً البحث عن جانب من الجوانب المتعلقة بالأخلاق ألا وهي: جذور الأخلاق، وبعبارة أخرى: الدعائم والدوافع التي تدفع بالإنسان نحو الأفعال الخلقية.

فما هو الدافع الذي يجعل الإنسان يتخلق بهذا أو ذاك؟ وما هو الرادع الذي يجعله يجتنب الأفعال السيئة؟

للإجابة على هذا التساؤل لابد من طرح بعض الأقوال والنظريات في هذه المسألة ومن ثم طرح القول الأصح حسب النظرية الإسلامية.

النظرية الأولى: المصلحة الفردية:

أنصار هذه النظرية يرون أن أخلاق الإنسان ليس لها جذور سوى المحافظة على المصالح الفردية، فكل إنسان يحب أن يكون الآخرون صادقين معه، وهذا لا يتحقق إلا إذا صدق هو مع الآخرين، إذ أنه لو كذب عليهم لكذبوا عليه وفقد بذلك الهدف الذي يسعى إليه، ولو شتم الآخرين أو سبهم أو قذفهم أو أهانهم لقابلوه بمثل ذلك أو أكثر، وهكذا لو تعدى على أموال

الناس فإنهم سيعاملونه بالمثل كما إذا سرق من جاره شيئاً فسوف يقوم جاره بنفس العمل تجاهه، وهكذا في سائر التصرفات.

فالإنسان إذا سعى لإيذاء الآخرين، ومارس أعمالاً سيئة فإن أثرها السلبي يعود عليه، وبالتالي فعليه أن يترك الأعمال السيئة ويمارس الأعمال الحسنة ليجلب إلى نفسه المصلحة. فيتضح من خلال هذه النظرية أن جذور الأخلاق التي يمارسها الناس من صدق ووفاء وحلم وصلة وعفة.. الخ، إنما هي المصلحة الفردية.

مناقشة النظرية:

إن هذه النظرية تفترض احترام الآخرين وعدم الاعتداء عليهم، وهذا جانب مهم في المعاملة الاجتماعية ؛ ولكن هذه النظرية المطروحة بعمومها ليست صحيحة بل هي سقيمة وعقيمة ومضادة للأخلاق في نفس الوقت، والسبب في ذلك أنها تعطي للقوي الحق في استخدام قوته ضد الضعفاء، حيث أن الإنسان عادةً إنما يراعي مصلحته فيما إذا كان الطرف الآخر قوياً مثله في نفس المستوى، أما إذا كان الآخر ضعيفاً أمامه فلا يبقى معنى لمراعاة المصلحة، بل سوف يتسلط على الآخر ويسحقه، ومثال ذلك ما نراه بين الدول العظمى العالمية حيث أن بعض الدول العظمى تراعي المصلحة فيما إذا قابلتها دولة عظمى فهي لا تتحرش بها لأنها تعرف النتيجة السيئة المعاكسة لهذا التحرش، أما إذا قابلتها دولة أقل مستوى من قوتها، فلن يردعها رادع من إستضعافها ونهب ثرواتها وتسويتها بالأرض ؛ هذا

مضافاً إلى أن هذه النظرية تؤدي إلى إباحة الكثير من المنكرات والأخلاق الرذيلة كالزنا

واللواط بحجة أنها لا تضر بالآخرين فيما إذا تراضيا الطرفان!!

والحاصل أن هذه النظرية سخيفة وباطلة وغير مقبولة لأنها لا تعتمد على أساس إنساني

وأخلاقي بل تعتمد على المصالح الذاتية كما هو واضح، كما أشار أمير المؤمنين (ع) في

وصيته لابنه الحسن (ع) حيث قال: **(يا بنى اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحب**

لغيرك ما تحب لنفسك وكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم واحسن كما تحب

أن يحسن إليك..)[٢٢]٢٢، ولا شك أن الإمام (ع) إنما عنى الجانب الإنساني في المعاملة

وهو المطلوب.

النظرية الثانية: الإستراتيجية:

وهي عكس النظرية الأولى، ومؤدى هذه النظرية يقول: إننا إذا أردنا أن يستقيم الناس في

أخلاقهم ولا يعتدي بعضهم على بعض فعلينا أولاً إقامة مجتمع ليس فيه قوي أو ضعيف،

ونساوي بين الجميع في ثرواتهم وممتلكاتهم، ونقضي على التفاوت الطبقي والملكية الفردية

الخاصة فلا نجعل أحداً يملك هذا وآخر لا يملك، بل على كل فرد أن يقدم من العمل للمجتمع

بمقدار حاجته، ويأخذ بمقدار حاجته وعندها سيتحقق العدل والأمن والسلام وتندعم العداوات

والأحقاد، ويعيش الكل أخوة على هذا الأساس.

مناقشة النظرية:

هذه النظرية غير سليمة أيضاً وذلك لأمرين:

أولاً: إنها أعطت الجانب المادي (المالي) الحجم الكبير في الوقت الذي لم تول الجانب

المعنوي أي إهتمام، ونحن نعلم أن المعاملة القائمة على أساس مادي تفشل ولا تدوم طويلاً

وهذا واضح.

ثانياً: إننا نرى أن المجتمعات التي طبقت هذه النظرية مليئة بالفساد والإعتداءات

والمذابح، والإتحاد السوفيتي أوضح شاهد على هذا، وفي النهاية حيث رأينا كيف سقط هذا

الإتحاد وتلاشى في النهاية.

ثالثاً: أن الملكية الفردية الخاصة ليست هي وحدها الكفيلة بإعطاء الإنسان الإمتيازات بل

إن الإمتيازات للإنسان تحصل من أسباب أخرى غير الملكية الفردية الخاصة وعلى سبيل

المثال: العلم: فإن الإنسان المتفوق في الجانب العلمي سيبقى متفوقاً مهما أغيينا الملكية الفردية

الخاصة، وكذلك الشه

الدرس السادس

نظرية نسبية الأخلاق

من المسائل الجديرة بالبحث والدرس في قضايا الأخلاق مسألة نسبية الأخلاق بمعنى أن الأخلاق التي يمارسها الإنسان ويتجمل بها هل هي ثابتة أم أنها متغيرة؟ وبعبارة أخرى هل أن أخلاقيات القرون الأولى تختلف عن القرون الوسطى أو القرون المتأخرة أم هي هي؟ وهل أن للزمان تأثيراً في تغيير هذا الخلق نفسه من حسن إلى غير حسن؟ وهل من الممكن أن تكون الأخلاق في عصر الفلاحة غير الأخلاق في عصر الآلة والاقتصاد والتطور أم أنها ثابتة؟ وأخيراً هل يمكن أن تكون أحد الصفات الأخلاقية كالصدق مثلاً صفة غير أخلاقية في بعض الظروف، أم أن الصدق حسن مهما تغيرت الظروف وتعددت الأسباب؟

إننا إن قلنا بنسبية الأخلاق فلن نتمكن من وصف فعلٍ ما بأنه فعل خلقي بشكل مطلق، مضافاً إلى أنه يصعب علينا بالتالي وضع منهج ثابت للتربية صالح لكل عصر.

وإن قلنا بعدم نسبية الأخلاق — كما هو الحق — فما معنى كون الكذب مثلاً ممدوحاً في بعض الأحيان وكذلك التكبر والغضب وأمثالها مع أنها مذمومة في حد ذاتها؟ وهكذا الكلام في سائر الصفات المحمودة إذ أنها تكون في بعض الأحيان مذمومة مع أنها محمودة في حد ذاتها، أو ليس حسن الشيء وقبحه ذاتي؟!!

الحسن والقبح العقليان:

للإجابة على التساؤلات السابقة نرى من الضروري إعطاء قاعدة عامة نعرف بواسطتها

أن هذا الفعل (حسن ممدوح) أو (قبيح مذموم)، وهذه القاعدة ترجع إلى العقل إذ أنه يدرك

(حُسن) هذا الشيء و(قُبُح) ذلك وليس له القدرة على ذلك.

هذا بخلاف الأشاعرة^[1] الذين قالوا إن العقل لا يمكن إدراك (حسن) هذا أو (قبح) ذلك،

وإنما الشرع وحده هو الذي يتكفل بتوضيح وتبيين حسن هذا أو قبحه.

ولا نريد الخوض في هذه المسألة العقائدية أكثر من هذا المقدار، لكن الذي عليه أهل الحق

والتحقيق هو: أن العقل بنفسه له القدرة على إدراك حسن (الحسن) وقبح (القبيح) بغض النظر

عن وجود المشرع وعدم وجوده فالعقل يستقل بالحكم على بعض الأفعال بأنها قبيحة كالكذب

والنفاق والسرقة.. الخ، كما يستقل أيضاً بالحكم على البعض الآخر من الأفعال بأنها حسنة

كالصدق والحلم والكرم والرفقة واحترام حقوق الآخرين ولا نعني بهذا أن العقل يدرك كل

شيء من دون الشرع كما هو واضح^[2].

العنوان الأولي والثانوي للأفعال:

يقصد بالعنوان الأولي: الصفة التي يتصف بها الشيء نفسه بغض النظر عن الصفات

الطارئة عليه.

[1] وهي إحدى الفرق الإسلامية التي تنسب لأبي الحسن الأشعري.

[2] للتزود أكثر تراجع الكتب الكلامية أيسرها تناولوا كتاب العدل الإلهي للشهيد المطهري.

ويقصد بالعنوان الثانوي: الصفة الزائدة والطارئة على الشيء غير صفته الأولية.

فمثلاً نقول إن استخدام التلفاز والراديو جائز بعنوانه الأولي كأبي جهاز آخر، لكنه

حرام بالعنوان الثانوي وذلك فيما إذا استخدم في الفساد كاستماع الغناء والنظر إلى

الأفلام للأخلاقية وأمثالها، فإذا استخدم هذه الأجهزة جائزة بالعنوان الأولي وحرام

بالعنوان الثانوي وبالتالي فليس في هذا أي تناقض.

إذا توضح هذا فهنا نقول إن كون هذا الفعل ممدوحاً تارة ومذموماً تارة أخرى ليس تحت

عنوان واحد ومن جهة واحدة لكي نقول بنسبية الأخلاق بل إن ذلك عند اختلاف العناوين

والجهات وإلا فالحكم ثابت، ولنضرب لذلك عدة أمثلة:

المثال الأول: الصدق والكذب:

فإن العقل يدرك (قبح) الكذب وأنه مفتاح للشرور ومصدر للأضرار كما أنه يدرك أيضا

(حسن) الصدق وأنه مصدر الثقة بين الناس كل هذا بالعنوان الأولي للصدق والكذب لكن هذا

العقل الذي كان يحكم بقبح الكذب نراه يستحسن الكذب لكن بالعنوان الثانوي لا الأولي، كما

في بعض الموارد مما يخرج عن كونه قبيحا بالنظر إلى ذاك المورد بالذات.

كما أنه لا يستحسن الصدق في بعض الموارد بالعنوان الثانوي لا الأولي وباعتبار أن

الشرع المقدس يتماشى مع العقل جنبا إلى جنب فقد ذكر كبار الفقهاء وعلماء الأخلاق

بالاستناد إلى أحاديث مخصوصة أنه يجوز الكذب في بعض الموارد:

منها: دفع الضرر أو الفساد أو الشر أو دفع القتل عن النفس أو عن أحد المسلمين أو

الحفاظ على العرض والمال المحترم قال الرسول (ص): **(احلف بالله كاذباً ونج أخاك من**

القتل)[٣]٣، فلو دار الأمر بين ان يرتكب الكذب حتى ينجي أخاه المسلم من القتل أو يصدق

فيقتل أخوه فلا شك ان العقل يحكم برجحان الكذب وتعيّنه ولا يرى مجالاً للصدق في هذه

الحالة.

ومنها: إصلاح ذات البين إذ تترتب عليه آثار إيجابية كبيرة قال الرسول (ص): **(ليس**

بكذاب من أصلح بين اثنين)[٤]٤، وقال (ص): **(كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب**

بين رجلين يصلح بينهما)[٥]٥.

ومنها: في الحرب فإن الحرب خدعة فإذا كان الكذب سبباً في الغلبة على الأعداء

المتمردين جاز استخدامه واصبح حسناً، وقد روي عن أم كلثوم قالت: **(ما سمعت رسول الله**

(ص) يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد الإصلاح والرجل

يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها)[٦]٦.

[3]٣ المكاسب للشيخ الانصاري ج ٤ ص ١٩٠.

[4]٤ البحار ج ٧٢ ص ٢٥٣.

[5]٥ البحار ج ٧٢ ص ٢٥٤.

[6]٦ البحار ج ٧٢ ص ٢٥٣.

وعلى هذا فلو حصل بين الزوجين جدال أو خلاف حول مسائل معيّنه من المسائل الأسرية أو المنزلية فقد يؤدي استمراره إلى الانفصال والطلاق الذي سيدمر الأسرة، وأمكن التخلص من هذه المشكلة بكذبة من أحدهما بحيث لا تؤدي إلى مشاكل أكبر، فهنا لا يعد الكذب قبيحاً بل يكون مستحسناً عقلاً وشرعاً.

وسنتحدث عما يتعلق بالصدق والكذب وعن الحالات المسوغة للكذب ومسائل التورية بشكل أوسع في دروس لاحقة من الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله، والحاصل أن الكذب بعنوانه الأولى قبيح لكن بعنوانه الثانوي ليس كذلك.

المثال الثاني: التواضع والتكبر:

فان الأول صفة ممدوحة والثاني صفة مذمومة، كل هذا بالعنوان الأولي المعقول لكن العقل كما يدرك (حسن) التواضع لمن يستحقه، فانه يدرك أيضاً (قبح) التواضع لمن لا يستحقه، فان التواضع للغني من أجل غناه مذموم قبيح، يقول أمير المؤمنين (ع): (من أتى غنياً فتواضع لغنائه ذهب الله بثلثي دينه) [7] [8].

وهكذا التواضع الذي يؤدي إلى الذل والهوان والحقارة، يقول الإمام الصادق (ع): (إن الله عزوجل فوّض إلى المؤمن أمره كلها ولم يفوّض إليه أن يذل نفسه) [8] [8].

[7] البحار ج ٧٢ ص ١٩٦.

[8] الكافي ج ٦٣.

وهكذا التواضع النابع من الخوف أو الطمع إذ هو مذموم أيضاً، يقول الإمام العسكري

(ع): **(ما أقبح بالمؤمن أن تكون له حاجة تذله)** [٩]٩.

وكذا بالنسبة للتكبر فانه وان كان مذموماً بعنوانه الأولى لكنه ممدوح بعنوانه الثانوي وذلك

فيما إذا تكبر على المتكبر المتجبر بل إن التكبر في هذه الحالة يعدّ عبادة بل هو التواضع،

يقول أمير المؤمنين (ع): **(التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينه)** [١٠]١٠، ويقول الله

تعالى في صفات المؤمنين: **{أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين}** [١١]١١.

المثال الثالث: الحلم والغضب:

فالعقل يدرك أن الحلم (حسن) بعنوانه الأولى وفي موضعه المعقول أما في غير موضعه

فمذموم، وهكذا الكلام في الغضب فهو (قبيح) إلا إذا كان في موضعه كالغضب لله

تعالى أو لاستنقاذ حق ضائع أو لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففي مثل هذه

الحالات لا يكون الغضب مذموماً بل يكون راجحاً مطلوباً يقول تعالى في صفة المؤمنين:

{أشداء على الكفار} [١٢]١٢ ويقول تعالى: **{واغظ عليهم}** [١٣]١٣.

[9]٩ حياة الامام العسكري للقرشي ص ٩٨.

[10]١٠ شرح ابن ابي الحديد ج ٢٠ كلمة ٤١٠.

[11]١١ المائدة آية ٥٤.

[12]١٢ الفتح آية ٢٩.

[13]١٣ التوبة آية ٧٣.

وقد أشرنا إلى هذا في الدرس الرابع من هذا القسم فراجع.

المثال الرابع: أكل لحم الميتة:

إذ أنه حرام قبيح إلا إذا كان لحفظ النفس من الهلاك فإنه حسن مباح بالمقدار الضروري،

وقد بحث الفقهاء هذه المسألة في الفقه بما يغنينا عن ذلك.

المثال الخامس: لمس الرجل جسد المرأة:

فانه غير جائز بل وقبيح ومخالف للعفة ولكن في الظروف الاستثنائية والحالات

الضرورية كالأمراض المستعصية أو إنقاذها من الغرق إذا تطلب ذلك مس جسدها فعندئذ

يكون هذا الأمر حسناً وجائزاً.

المثال السادس: الوفاء والغدر:

إذ أن الوفاء من الأخلاق الحميدة ولكن ليس على الإطلاق لأن ترك الوفاء لأهل الغدر أمر

مقبول ولعل فيه مصلحة عامة في بعض الأحيان يقول أمير المؤمنين (ع): **(الوفاء لأهل الغدر**

غدر عند الله سبحانه والغدر لأهل الغدر وفاء عند الله سبحانه) [١٤] ١٤.

المثال السابع: العفو عن المسيء:

يعد من مكارم الأخلاق لكن عندما يكون العفو سببا لتجرؤ المسيء وتماديه بحيث يؤدي

إلى الإضرار بالغير فمن الأفضل في هذه الحالة معاقبته وعدم العفو عنه، يقول الإمام السجاد

(ع): **(وحق من ساءك أن تعفو عنه وإن علمت أن العفو يضر انتصرت، قال الله تبارك**

وتعالى: {ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل} [١٥] [١٦] [١٦].

المثال الثامن: الظن:

فهو من الصفات الذميمة في الحالات الطبيعية، لكن حينما تنقلب الموازين ويسيطر الظلم

والجور على العدل والفساد على الصلاح ففي هذه الحالة تكون هذه الصفة حميدة، يقول الإمام

الهادي (ع): **(إذا كان زمانُ العدلُ فيه أغلب من الجور فحرام أن يظن بأحد سوء حتى يعلم**

ذلك منه وإذا كان زمانُ الجور أغلب فيه من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيرا ما

لم يعلم ذلك منه) [١٧] [١٧].

وهكذا يجرى الكلام في اغلب الصفات الأخلاقية، والأمثلة على ذلك كثيرة.

والخلاصة: إن كثيراً من الأفعال تكون حسنة بعنوانها الأولي وقبيحة بعنوانها الثانوي

والعكس.

[15] ١٥ [15] الشورى آية ٤١.

[16] ١٦ [16] رسالة الحقوق ج ٢ ص ٥٢٣.

[17] ١٧ [17] البحار ج ١٧ ص ٢١٦.

وهذا لا يعني كون الأخلاق نسبية إذ أنها مهما تغيرت من ظرف إلى آخر فإنها منسجمة

مع العقل ومع الإسلام أيضاً، وبعبارة أخرى أن نفس العقل الذي قدحكم بحسن هذا الفعل

بعنوانه الأولي قد حكم أيضاً بقبح نفس الفعل لكن بعنوانه الثانوي، ومن هنا فإننا نستطيع أن

نقول أن بإمكاننا وضع منهاج في التربية الأخلاقية صالح لجميع العصور، لكن في نفس

الوقت علينا أن نكون على درجة من الوعي والإدراك في تشخيص الحالات مستعينين في ذلك

بالشرع المقدس باعتباره عقل العقلاء، وقد ورد في الحديث: **(حلال محمد حلال إلى يوم**

القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة) [١٨]١٨، وكما ورد أيضاً **(لا ضرر ولا**

ضرار) [١٩]١٩، والكلام في هذا المجال لا تسعه هذه الوريقات فيطلب في مضانه.

تنبيه:

إن بعضاً قد يفهم مما سبق أن جميع الأفعال الحسنة قد تنقلب إلى أفعال سيئه إذا تطلبت

الظروف، فيقال أن العفة مثلاً كانت في السابق حسنة لان المصلحة تقتضي ذلك فكان من

الأفضل التأكيد عليها، أما الآن وفي عصر الآلة الذي يتطلب تواجد المرأة في ساحة العمل

ومشاركة الرجل في الحياة المعيشية وتنمية عجلة الاقتصاد فإنه لا معنى للعفة والالتزام

بالحجاب! هذا ما قد يظنه البعض.

[18]١٨ البحار ج ١١ ص ٥٦.

[19]١٩ البحار ج ٥ ص ٢٨٠.

لكن هذا ليس صحيحاً إذ أن العفة من الأمور التي يتطلبها كل عصر وعلى اختلاف الظروف لأن العفة عبارة عن انقياد القوة الشهوانية للقوة العاقلة فليس من المعقول أن نجعل الشهوة هي السلطان المسيطر على العقل ولو في لحظة من اللحظات..، إذ لا بدّ من أن نجعل القوة العقلية مخدومة من قبل سائر القوى لا خادمة لها.

للقراءة والتأمل

في واقعة يرويها التاريخ خلاصتها: أن عبد الله بن حذافه بن قيس القرشي أسرته الروم مع مجموعة من المسلمين وعرضت عليه التنصّر فأبى فأمر بالقاءه في زيت يغلي فبكى فسئل عن بكائه فقال إنني أتمنى أن تكون لي أكثر من نفس افديها لله فأمر قائد الروم بإطلاق سراحه، لكن عرض عليه أموراً من بينها قال له: قبل رأسي فأبى، فقال له: قبل رأسي أطلقك مع ثمانين من المسلمين، قال: أمّا هذا فأفعل فقبل رأسه فأطلقه مع ثمانين من المسلمين، وبعد أن عاد إلى المدينة كان البعض يقول له: قبلت رأس العالج الكافر، فيقول: أطلق الله بهذه القبلة ثمانين من المسلمين.

والشاهد أن القبلة لرأس هذا الكافر مذمومة بالعنوان الأولى وممدوحة بالعنوان الثانوي. وتشخيص مثل هذه الحالات تحتاج كما سبق إلى الدقة من الفقهاء أنفسهم فضلاً عن سائر الناس.

الأسئلة

السؤال الأول: ما هو مفهوم نظرية نسبية الخلاق؟

السؤال الثاني: هل يمكن للعقل إدراك حسن الشيء وقبحه؟ وما رأي الأشاعره في ذلك؟

السؤال الثالث: اذكر ثلاثة موارد يكون الكذب فيه ممدوحاً؟

السؤال الرابع: حاول الإتيان بمورد غير ما ذكر في الدرس يكون الفعل ممدوحاً بعنوانه

الأولي ومذموماً بعنوانه الثانوي؟

الدرس السابع

مسالك تهذيب الأخلاق

في الدرس الخامس ذكرنا النظريات المطروحة حول جذور الأخلاق ودوافعها، وهنا

نذكر الأساليب والمسالك المتبعة في إصلاح أخلاق الإنسان وتهذيبها حيث برزت عدة من

المسالك في هذا الصدد، ونحن نطرحها وسنبين أيها أولى من سواها وأيها أقرب وأكثر ضماناً

من غيرها.

المسلك الأول:

وهو المسلك المأثور عن علماء الأخلاق القدماء اليونانيين وغيرهم، وأساس هذا المسلك

يعتمد على أمرين:

١- تحقيق الغايات الدنيوية:

فقناعة الإنسان بما عنده مثلاً توجب العزة والعظمة في أعين الآخرين والاستغناء عما في أيديهم بخلاف الطمع والشره فإنه يوجب الفقر والذلة، وهكذا الشجاعة فإنها توجب الدفاع عن النفس والخوض في معارك النزال والأهوال، وهذا بعكس الخوف والجبن الذين يوجبان القلق والاضطراب الدائم والسكوت عن الحق في كثير من الأحيان وعدم القدرة على رد المعتدي، فلأجل أن يحافظ الفرد على مكانته وهيئته فلا بد من تهذيب أخلاقه.

٢- مدح العقلاء:

إذ أن العقلاء يميزون بين الفعل السيء والفعل الحسن فلأجل أن يثني العقلاء على هذا الفرد ويصير محبوباً في قلوبهم فإنه يقوم بالأعمال الحسنة ويتصف بالصفات المحمودة كالعفة وذلك لكونها سبباً للذكر الجميل بين الناس في الحياة والممات، وكذلك تصنع الكرم والجود الذي يوجب ثناء الآخرين أيضاً وهكذا في سائر الصفات المحمودة، وفي نفس الوقت يجتنب عن رذائل الصفات لكونها سبباً في الذم والاستتكار من جانب العقلاء.

فالمسلك الأول إذا يركز على تحقيق متطلبات الحياة الاجتماعية وإقامة الحق الاجتماعي

فيهذب الإنسان أخلاقه من أجل ذلك.

نظرة في المسلك الأول:

هذا المسلك وإن كان يؤدي بعض الغرض لكن لم يستعمله القرآن الكريم ولم يعتمد عليه في تهذيب الأخلاق، وذلك لأن المحرك إليه متعلق بجانب العباد لا بجانب المعبود تبارك وتعالى،

فقد تكون غالب حركاته وأفعاله من اجل الرياء والسمعة أمام الناس، وهذا ينافي ما أمر الله به

من الخلوص في جميع الأفعال وبالتالي الوقوع في مصيدة الشيطان التي تؤدي إلى الجحيم،

يقول أمير المؤمنين (ع): **(ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس ويكسل إذا كان وحده**

ويحب أن يحمد في جميع أموره) [٢٠]٢٠.

وسنتناول البحث حول الرياء والإخلاص في الموضوع المناسب ان شاء الله.

المسلك الثاني:

وهو المسلك المتبع لدى الأنبياء (ع) والبارز من خلال الكتب السماوية والدعوات الدينية،

ويعتمد هذا المسلك على الغايات الأخروية فهو يبين المنافع الأخروية والسعادة الأبدية التي

تحصل بسبب التحلي بالفضائل والأخلاق الحسنة، كما يبين المضار والمفاسد الأخروية

والشقاوة الأبدية التي تحصل بسبب ممارسة الرذائل والأخلاق السيئة، والقرآن الكريم مليء

بذكر الغايات الأخروية كقوله تعالى: **{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن**

لهم الجنة} [٢١]٢١، ويقول سبحانه وتعالى: **{وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها**

السموات والأرض أعدت للمتقين} [٢٢]٢٢، ويقول سبحانه وتعالى: **{يوم تجد كل نفس ما**

[20]٢٠ البحار ج ١٣ ص ٤١٥.

[21]٢١ التوبة آية ١١١.

[22]٢٢ آل عمران آية ١٣٣.

عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً{٢٣}[٢٣]،

ويقول سبحانه وتعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً

وسيصلون سعيراً}{٢٤}[٢٤]، ويقول سبحانه وتعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم

خالداً فيها}{٢٥}[٢٥].

ويقول سبحانه وتعالى: {أليس في جهنم مثوى للمتكبرين}{٢٦}[٢٦].

وكما أن القرآن ذكر هذا المسلك فالأحاديث الواردة عن النبي (ص) وأهل بيته (ع) أشارت

إلى هذا المسلك في كثير من المناسبات كقول الإمام الصادق (ع) في ثواب صلة الرحم: (إن

صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب فصلوا أرحامكم وبروا إخوانكم ولو

بحسن السلام ورد الجواب){٢٧}[٢٧].

[23]٢٣ آل عمران آية ٣٠.

[24]٢٤ النساء آية ١٠.

[25]٢٥ النساء آية ٩٣.

[26]٢٦ الزمر آية ٦٠.

[27]٢٧ البحار ج ٤ ص ١٣١.

وفي عقاب الغناء والزنا ومستخدم المزمار والدف يقول الرسول (ص): **(يحشر صاحب**

الغناء في قبره أعمى واخرس وابكم ويحشر الزاني مثل ذلك وصاحب المزمار مثل ذلك

وصاحب الدف مثل ذلك) [٢٨]٢٨.

وفي عقاب النميمة والكذب يقول (ص): **(لما اسري بي رأيت امرأة رأسها رأس خنزير**

وبدنها بدن حمار عليها ألف ألف لون من العذاب فسئل (ص): ما كان عملها؟ فقال (ص):

(إنها كانت نمّامة كذّابة) [٢٩]٢٩.

فالأيات المتقدمة وهذه الأحاديث وغيرها، والتي لاحظنا تنوعها تصب في مصب واحد

وهو تحديد الثواب الجزيل المترتب على الفضائل كما تحدد العذاب الشديد المترتب على

الردائل، والقرآن والسنة النبوية مليئة بالتشجيع على كل عمل حسن والتحذير من كل عمل

قبيح لأن الأول سبب للسعادة ودخول الجنة أما الآخر فسبب للشقاوة ودخول النار، وقد جمعت

الآية الآتية ترغيب الناس لفعل الخيرات يقول تعالى: **{وفي ذلك فليتنافس**

المتنافسون} [٣٠]٣٠، كما أن في الآية الآتية ترهيب للناس وتحذير لهم من فعل الشرور يقول

[28]٢٨ البحار ج ٧٩ ص ٢٥٣.

[29]٢٩ البحار ج ٧٥ ص ٢٦٤.

[30]٣٠ المطففين آية ٢٦.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [٣١]٣١.

نظرة في المسلك الثاني:

هذا المسلك حسن جيد ويؤدي إلى الغرض من الاستقامة وإصلاح النفس وتهذيب الأخلاق

لكنه ليس هو هدف أولياء الله المحبين، وهذا المسلك ليس من مختصات القرآن الكريم وإنما

ذكرته الكتب السماوية الأخرى أيضاً.

المسلك الثالث:

وهذا المسلك هو أفضل المسالك لتهذيب الأخلاق واكمال الطرق لتربية النفس، وهو كما

يقول السيد الطباطبائي (قده): من مختصات القرآن الكريم إذ لا يوجد في شيء مما نقل إلينا

من الكتب السماوية وتعاليم الأنبياء (ع) ولا في المعارف المأثورة من الحكماء

الإلهيين [٣٢]٣٢ ويعتمد هذا المسلك على حب الله والفناء في ذاته المقدسة والانشغال به تعالى

عمن سواه بحيث لا يرى هدفاً له في حياته إلا خالقه ولا أمل يريد تحقيقه إلا رضاه بصرف

النظر عن وجود جنة للثواب ونار للعقاب، فهذا القسم من الناس يعتبرون القرب من الله هو

الجنة والنعيم والبعد عنه هو العذاب والجحيم، كما يقول الإمام السجاد (ع) في إحدى مناجياته:

[31]٣١ التحريم آية ٦.

[32]٣٢ الميزان ج ١ ص ٣٥٨.

(يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وأخرتي) [٣٣]٣٣، ويقول: (الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك

فرام منك بدلا ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً) [٣٤]٣٤، فالمحبون لله حبا حقيقيا

يذوبون في عبادته وما يقربهم منه ويستلذون بما يرضيه ويستعيذون به من هجرانه والغفلة

عنه، انهم لا يفكرون في مخالفته فضلا عن الوقوع فيما يسخطه ويعتبرون مجرد التفكير في

معصيته ذنباً عظيماً وجرماً كبيراً.

إن هذا القسم من الناس عاشوا حالة العشق لربهم فلا يرون في قلوبهم إلا الله ولا أمل لهم

سواه، لقد وصل بهم هذا الحب إلى عدم الاستقرار، فهم مثلاً يتمنون حلول الليل عليهم كي

يخلون بمحبوبهم ويناجونه ويسهرون في لقاءه، هؤلاء هم الذين وصفهم أمير المؤمنين (ع)

بقوله: (ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ويقول لقد خولطوا ولقد

خالطهم أمر عظيم..) [٣٥]٣٥، وروي أن عيسى (ع) مر بثلاثة نفر قد نحتل أبدانهم وتغيرت

ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا الخوف من النار، فقال حق على الله أن يؤمن

الخائف؛ ثم تجاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا، فقال لهم ما الذي بلغ بكم

ما أرى؟ فقالوا الشوق إلى الجنة، فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم تجاوزهم إلى

ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال ما الذي بلغ

[33]٣٣ مناجاة المريدين للإمام السجاد (ع).

[34]٣٤ مناجاة المحبين للإمام السجاد (ع).

[35]٣٥ نهج البلاغة خطبة المتقين.

بكم ما أرى؟ قالوا حب الله عز وجل!! فقال **أنتم المقربون**، وفي رواية قال لهم **(أنتم أولياء**

الله حقا معكم أمرت أن أقيم) [٣٦]!!

نعم إن هذه الفئة لا همّ لهم سوى محبوبهم الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فهم لا يفعلون شيئاً من الخيرات طمعا في جنة أو ثواب ولا يتركون شيئاً من الشرور خوفاً من نار أو عقاب بل كل أعمالهم تنطلق من حبهم لله ونيل قربه ورضاه.

أسباب الحب لله:

إن هؤلاء المحبين إنما سرى حب الله في عروقهم لأنهم لا يرون محبوباً مستحقاً للحب سواه ولا محبوب في الحقيقة غيره وذلك لأسباب ثلاثة.

السبب الأول: حب الذات:

وهو أمر فطري فلا نجد إنساناً إلا محباً لذاته فمن باب أولى أن يكون محباً لمن أوجد هذه الذات وهو الله جل شأنه فهو موجدتها من العدم إلى الوجود ومن الظلمة إلى النور وهو قوام كل ذات موجودة والمنعم عليها بسائر النعم، وكمثال على هذا: من يستظل تحت شجرة فإنه يحب هذا الظل لحبه لذاته فكيف لا يحب الشجرة نفسها التي هي أساس الظل، فإله هو مكنون كل موجود وسبب كل نعمة ولهذا فقد احبه المحبون، وفي الحديث عن الرسول (ص): **(أحبوا**

الله لما يغذوكم به من نعمه) [37]37، وعن أمير المؤمنين (ع) انه قال: (إن قوماً عبدوا الله

رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد وإن قوماً عبدوا الله

شكراً فتلك عبادة الأحرار) [38]38.

السبب الثاني: حب الكمال والجمال:

وهذا أمر فطري فالإنسان بفطرته يميل نحو الكمال والجمال فيحب مثلاً ان تكون لديه

زوجة تسعده ومنزل يعيش فيه وذرية من نسله كما انه يحب ان يكون عالماً وثرياً ووجيهاً إلى

ما هنالك من الأمور التي يعتقد فيها الكمال مع أنها أمور اعتبارية وكمالها مشوب بالنقص

وجمالها صوري، ولا يوجد جمال خالص وكمال مطلق إلا لله عز اسمه فهما منحصران فيه

وكل كامل سواه فكماله فرع لكمالهِ وكل جميل مقتبس جماله منه تعالى، وما دام الله هو الكمال

المحض والجمال الخالص فهو أحق أن يكون محبوباً وحرى بان يكون معشوقاً.

السبب الثالث: طلب العزة والقوة والملك:

إن كل فعل يراد به غير الله سبحانه وتعالى فالغاية المطلوبة منه إما عزة في المطلوب

يطمع فيها أو قوة يخاف منها أو ملك يريد الوصول إليه، والعارفون بالله المحبون له لديهم

[37]37 البحار ج ١٧ ص ١٤.

[38]38 تفسير مواهب الرحمن للسبزواري ج ١ ص ٣٥.

يقين بأن ذلك كله بيد الله تعالى لا بيد غيره إذ يقول تعالى **{إن العزة لله جميعاً}** [٣٩]٣٩،

ويقول سبحانه: **{إن القوة لله جميعاً}** [٤٠]٤٠، ويقول سبحانه وتعالى: **{قل اللهم مالك الملك**

تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء} [٤١]٤١، فهؤلاء لا يتعززون بالناس ولا

يلجأون إليهم لكي يفتقروا معهم في الأزمات الصعبة، ولا يسعون نحو أبواب الملوك ليتزلفوا

إليهم طلباً لمنصب أو جاه، لأن كل هذه الأمور عندهم اعتباريه لا حقيقة لها إلا عند الله

الخالق تبارك وتعالى.

فمن خلال هذه الأسباب وأمثالها أنخرست أشجار محبة الله في أفئدتهم وسرت في عروقهم

فانقطعوا عن كل شئ سوى الله، وانطبع هذا العلم والإدراك على أفعالهم وتصرفاتهم فكلها

إلهية ملكوتية فلا يخطون خطوة إلا للتقرب إلى الله تعالى ولا يرجون ولا يخافون إلا الله ولا

يرضون ولا يغضبون إلا لله وفي الله، وبذلك تستقيم أخلاقهم بصورة طبيعية.

هذا خلاصة المسلك الثالث المختص بالقرآن الكريم.

خلاصة الفرق بين المسالك الثلاثة:

الفرق بين هذا المسلك الأخير وسابقه واضح جلي إذ أن أصحاب المسلك الأول المتقدم

الذكر يسعون إلى الفضائل من أجل مدح العقلاء لهم، ويحذرون الرذائل لأنها تؤدي إلى ذمهم.

[39]٣٩ يونس آية ٦٥.

[40]٤٠ البقرة آية ١٦٥.

[41]٤١ آل عمران آية ٢٦.

وأصحاب المسلك الثاني يسعون إلى الفضائل لأنها توصلهم إلى الجنة ويجتنبون الرذائل لأنها تورطهم في الدخول إلى النار.

أما أصحاب المسلك الأخير فإنهم يسعون إلى الفضائل ويجتنبون الرذائل من أجل ذات الله لا غير فلا يفكرون بالثناء الجميل من الناس ولا يلتفتون من خلال ذلك إلى دنيا ولا آخرة ولا جنة ولا نار وإنما الهَمّ الوحيد لهم ربهم لحبهم له، وهذا المسلك الثالث افضل المسالك وأقربها وأخصرها للوصول إلى تهذيب النفس والتحلي بمكارم الأخلاق، وهو مسلك الأحرار في الدنيا وكفى شرفاً لهذه الفئة أن يكون قائدهم وقوتهم أمير المؤمنين (ع) الذي يقول: **(ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعا في جنتك وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)** [٤٢].

للقراءة والتأمل

في الحديث عن النبي (ص): **(أنه بكى شعيب من حب الله عز وجل حتى عمي فرد الله بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عز وجل بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه يا شعيب إلى متى يكون هذا بدأ منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أنني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك**

ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك^{[٤٣]٤٣} فأوحى الله جل جلاله إليه أما إذا كان

من أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران(٤٤)[٤٤].

ألاحظه في كل شيء رأيته وأدعوه سراً بالمنى فيجيب

ملأت به قلبي وسمعي وناظري وكلني وأجزائي فأين يغيب

يا محرقاً بالنار وجه محبه مهلاً فإن مدامعي تطفيه

أحرق بها جسدي وكل جوارحي واحذر على قلبي لأنك فيه

الأسئلة

السؤال الأول: وفق بين عمود (أ) وعمود (ب):

العمود (أ) العمود (ب)

المسلك الأول الأنبياء والكتب السماوية

المسلك الثاني خاص بالقرآن الكريم

[43]٤٣ معنى قوله أو أراك: يعني أراك قبلتني حبيباً.

[44]٤٤ البحار ج ١٢ ص ٣٨١.

علماء الأخلاق القدماء

المسلك الثالث

السؤال الثاني: اذكر آيتين وحديثين تبيين الجزاء الأخروي لبعض الأعمال (غير ما ذكر في

الدرس)؟

السؤال الثالث: اذكر أسباب حب الله مع التحدث عن احدها باختصار؟

السؤال الرابع: اذكر الفرق بين المسلك الثاني والمسلك الثالث؟

توجيه:

حاول حفظ مناجاة المحبين للإمام السجاد (ع) من كتاب مفاتيح الجنان.

الدرس الثامن

كيفية التخلص من العادات الذميمة

الخلق الكامل:

إذا رجعنا إلى الدرس الخامس من هذا القسم فإننا نلاحظ أننا وقفنا مع النظريات حول جذور الأخلاق وعرفنا دور الدين في تنمية الأخلاق.

ولنا هنا في هذا الدرس وقفة أخرى نريد أن نعرف من خلالها سبب تفاوت الناس في مراتب الأخلاق وكيفية التخلص من العادات الذميمة التي اعتادتها النفس، فنقول: إن الإنسان إذا اتصف بأممات الفضائل [العفة - الشجاعة - الحكمة - العدالة] فقد تمّت وكملت أخلاقه وكان متصفاً حينئذ بحسن الخلق بالمعنى الحقيقي الصحيح، ومن النادر جداً أن يُوفّق الإنسان لعقل كامل ولأخلاق فاضلة من بداية حياته، بحيث يكون مكفياً من سلطان الشهوة والغضب، بل إن هذا التوفيق خاص بالأنبياء والأئمّة (ع) لعلم الله تعالى بذواتهم الطاهرة، ففطرهم على ذلك، ومن هنا نجد العناية الإلهية الخاصة بالرسول (ص) إذ هو (ربيب الله) وهو الذي يقول (أدبني ربي فأحسن تأديبي) [1]، ولم يمدح الباري تعالى نبياً بما مدح به هذا الإنسان الكامل

إذ يخاطبه بقوله: **{وإنك لعلی خلق عظیم}** [٢]٢، ولكن سائر الخلق يتفاوتون من هذه الناحية

قوة وضعفاً.

يولد الإنسان صحيفة بيضاء:

من الخطأ الفادح إن يتوهم البعض إن الناس يولدون أختياراً متصفين بالفضائل أو أشراراً متصفين بالردائل، كما يولد (الحمل) [٣]٣ وديعاً، والنمر مفترساً، فليست الأخلاق وليدة الاتفاق والصدفة بل هي ملكات مكتسبة إما من التربية أو من البيئة، لذلك قال الفلاسفة القدماء:

(الإنسان صحيفة بيضاء يرسم فيها المرَبِّي ما يشاء).

أدقّ من الشعرة:

إنّ التوفيق بين ملكات الإنسان والموازنة بينها وعدم الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط ليس بالأمر السهل ولا بالطريق المعبّد، بل هو في غاية الصعوبة ولا يمكن ذلك إلا بالجهاد المتواصل ومن هنا اعتبر البعض كالعلامة الطوسي (قده) وجماعة آخرون أن معنى الصّراط الذي وصفته الأخبار بأنه: **(أدقّ من الشعرة واحد من السيف)** [٤]٤ هو الموازنة والاعتدال في الصّفات الأخلاقية والملكات النفسية وذلك لصعوبة هذا الأمر.

[2]٢ القلم آية ٤.

[3]٣ الخروف.

[4]٤ البحار ج ٨ ص ٦٥.

وباعتبار كون صفات الإنسان وأخلاقه المكتسبة تتجسد في عالم الآخرة فلا يستبعد صحة هذا الربط بين صراط الأخلاق وصراف يوم القيامة، ولا يعنى هذا بطبيعة الحال إنكار وجود صراط ممدود كالجسر على الجحيم بل المقصود ان من ثبت على الأخلاق الحسنة في الدنيا ووازن بين ملكاته ولم يميل إلى الإفراط والتفريط لم تنزل قدمه يوم القيامة على ذلك الصراط ووصل إلى الجنة، وأما من مال عن الأخلاق الحسنه وحاد عنها في الدنيا ومال إلى جانبي الإفراط والتفريط فسوف تضطرب قدمه على ذلك الصراط ويسقط في جهنم ؛ ورغم صعوبة هذه الموازنة بين الملكات إلا أنها لم تصل إلى حد الاستحالة، وقد تبني هذا الرأي مجموعة من الكتاب منهم الفيلسوف الألماني (شوبنهار) والفيلسوف الهندي (وسبينوزا) والفرنسى (ليني بريل)، لكن اكثر الفلاسفة الأخلاقيين في الشرق والغرب قد ردوا هذا الرأي واعتبروه من شذوذ الأقاويل، وقد أشرنا في الدرس الثاني من هذا القسم إلى التفصيل في إمكان التبدل وعدمه بين صفات وأخرى فراجع.

العادة طبع ثاني:

يمكن أن تكون الصعوبة في الموازنة بين الملكات راجعة إلى صعوبة التخلي عما اعتاد عليه الإنسان لمدة طويلة، حيث أن الفرد إذا مارس فعلاً ما انسجم فكره معه وأنست نفسه به وأصبح له بمثابة الطبع كما يقول أمير المؤمنين (ع): (العادة طبع ثاني) [5]هـ ويقول أيضاً:

(العادة عدوٌ متمكّن) [٦]٦ وبالتالي يكون من غير السهل الإقلاع عنه، يقول الإمام العسكري

(ع): (ردّ المعتاد عن عادته كالمعجز) [٧]٧، وأوضح مثال على ذلك من تعودّ شرب السجائر

سنيماً طويلة وبصورة دائمة فانه يصعب عليه التخلي عنه كما هو واضح، وهكذا يجرى نفس

الكلام في جانب الرذائل الأخلاقية كالكذب والغيبة والحسد والغضب في غير محله والغرور

والتكبر، فمن اعتاد عليها فترة من الزمن عسر عليه التخلص منها.

ثريّ يعشق الاستجداء:

وكشاهد على ما نقول إقرأ معي هذه القصة: حكي أن ثرياً ارتكب جريمة ما في حق رجل

وبعد تقديمه للمحاكمة حكم عليه بالقتل ما لم يعف عنه الرجل، فأخذ الثريّ يتوسّل إليه حتى

يعفو عنه، فرضي الرجل بالعفو عنه بشرط أن يجلس هذا الثريّ المجرم على قارعة الطريق

أمام المارّة يوماً طوال سنة كاملة ويستعطي الآخرين وكأنّه فقير صعلوك، ولكي يحافظ هذا

الثريّ على رأسه من القطع رضي بهذا الأمر العسير وهذه الإهانة الكبيرة وهو يتجرع

المرارة، وحددت المحكمة وقتاً لذلك ووضعت عليه رقابة مشدّدة، فجلس في طريق المارّة

متمنياً في أوّل الأمر أن تتشقّ الأرض وتبتلعه ولا يكون في مثل هذا الموضع المخزي ويذوق

مرارة الإهانة، مادّاً كفه للآخرين يطلب منهم المساعدة ليمدّوا يد العون له، ومع مرور الأيام

أصبح الأمر سهلاً نوعاً ما ثم صار طبيعياً بعد ذلك، وفي الأخير أصبح ينتظر الساعة التي

[6]٦ غرر الحكم ودرر الكلم ص ٣٣.

[7]٧ البحار ج ٧٨ ص ٣٧٤.

يجلس فيها على الطريق بهذه الحالة، وانتهت سنة كاملة فرفعت المحكمة عنه هذا الحكم لكن الغريب في الأمر أن هذا الثري ما زال يأتي يومياً إلى مكانه السابق بنفس الطريقة، فلما سئل عن ذلك، أجاب: أنه لا يستطيع التخلي عن هذه العادة التي تعود عليها إذ أنها أصبحت جزءاً من حياته!!

والحاصل: أن الفرد الذي يتعود على مزاوله أمر ما فإنه يصبح أمراً طبيعياً مهما بلغت صعوبته سابقاً، وذلك لأن من خصوصيات النفس انسها بكل أمر تكرر حسناً كان أو قبيحاً كما قيل: النفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تقطمه ينفطم.

ثلاثة شروط أساسية لمكافحة العادة:

إن مكافحة العادة كالمعجز لكن لم يصل إلى حد الاستحالة فلا ينبغي أن يتولد اليأس لدى الفرد المعتاد على أمر ما ولكن إذا أراد أن ينجح في هذا المضمار فليهيئ نفسه جيداً للدخول في هذه المعركة، وليعلم أن نجاحه يتوقف على **شروط ثلاثة:**

أولاً: تحديد العادة التي يريد الإقلاع عنها وتحديد البديل لهذه العادة، وهذا شيء مهم.

ثانياً: تلقين النفس بأن الأمر الذي اعتادت عليه أمر سيئ عقلاً وشرعاً فمثلاً: من أراد أن

يقنع صفة (الجبن والخوف) من نفسه، فعليه أن يلقي نفسه ويخاطبها بما يلي:

إن الأمر الذي تخافين منه متساوي الطرفين فمن الممكن وقوعه ومن الممكن أيضاً

عدم وقوعه، فلماذا ترجّحين إحدى الطرفين وهو الوقوع على عدم الوقوع، إن هذا ترجيح بلا

مرجح والعاقل لا يرجح طرفاً على آخر من غير مرجح، وبالتالي فلا داعي للخوف.

فإذا لقن الإنسان نفسه هذا القول مراراً في كل مورد خاف فيه، فسوف تتولد قناعة

لدى النفس بأنه لا داعي فعلاً لهذا الخوف أو ذاك إذا كان في غير محلّه، وهكذا يلقن نفسه

بمساوى كل صفة يريد التخلّي عنها، ويلقنها بمحاسن كل صفة يريد التحلّي بها.

والنتيجة: إن تلقين النفس له الدور الكبير في تسهيل السلوك للإتيان بالخلق الحسن وترك

الخلق السيئ، وهدم الخلق القديم، وبناء الخلق الجديد حتى وإن لم نقل أن ذلك يتم بصورة

جذرية في بعض الصفات الأخلاقية.

ثالثاً: تهيئة كل ما لديه من العزم والإرادة واستثمار كل طاقاته من أجل بلوغ الهدف الذي

يريد تحقيقه وهو الإقلاع عن هذه العادة المحددة، إذ إنّ إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة

العمل وبقوة هذه الإرادة تكافح هذه العادة الشاذة وتصادم الميول المتطرّفة كما أنه بقوة الإرادة

تبتدأ الفضيلة وفي هذا الشأن يقول الإمام الصادق (ع): **(ما ضعف بدنّ عما قويت عليه**

النية) [٨]، والمقصود بالنية هنا (الإرادة)، وبدونها لن يحقق شيئاً.

نصائح لتقوية الإرادة:

من شروط مكافحة العادة – كما ذكرنا أعلاه – العزم والإرادة وهذه الإرادة لا بد أن

تكون قوية بحيث تقدر على أن تتخطى الصعاب وتكون كما قال الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك

فما انقادت الآمال إلا

لصابر

المنى

ويقول الآخر:

لا تحسب المجد تمرا أنت

لن تبلغ المجد حتى تلعق

الصبرا

آكله

وتختلف قوة الإرادة من فرد إلى آخر ولذا سنذكر باختصار بعض النصائح التي أدلى بها

علماء النفس في هذا الصدد والتي من شأنها تنمية الإرادة وتقويتها:

(١) عيّن الهدف قبل بدء العمل ولا تتردد، يقول الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا

فإن فساد الرأي أن تترددا

عزيمة

(٢) ليكن طموحك الوصول إلى أعلى درجة من هدفك المنشود، يقول أبو القاسم الشابي

التونسي:

يعش ابد الدهر بين الحفر

ومن لم يحب صعود الجبال

ويقول آخر:

فلا تقنع بما دون النجوم

إذا غامرت في أمر مروم

فطعم الموت في أمر حقير

الموت المرء في أمر عظيم

كطعم

٣) ازرع في نفسك الثقة بالوصول إلى ما تريد، حيث إن الثقة بالنفس يخفف عنك جهد

العمل وبه تقطع نصف المسافة، عليك أن تبعد العجز عنك وتتحدى الصعوبات فأنت البطل في

هذه الحلبة، يقول أمير المؤمنين (ع): **(أعجز الناس من قدر أن يزيل النقص عن نفسه ولم**

يفعل) [٩]٩.

٤) حاول إتقان العمل وإن كان شاقاً، فإنّ الفوز نتيجة المثابرة والإتقان.

٥) حاول تكرار العمل ومعاودته كثيراً حتى ينطبع في النفس وتزول الصفة المضادة.

ولأهمية هذا الأمر الأخير — تكرار العمل — سنقف معه قليلاً.

أهمية تكرار العمل:

لقد أثبتت التجارب الإنسانية بأنّ مزاوله أي عمل وتكراره والمواظبة عليه كثيراً يجعل هذا العمل مرتكزاً في الذهن ومنتقشاً في النفس إنتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّره على الأقلّ، وكما يقال: (من شبّ على شيء شاب عليه)، ويقول أمير المؤمنين (ع): (من استدام قرع الباب

ولج ١٠ [١٠] ولج [١١] [١١]، ويقول أيضاً: (ومن يدمن قرع الباب يلج) [١٢] [١٢].

وهذا الأسلوب من أنفع الأساليب في التربية بشكل عام كما تقدم، ولترسيخ الملكات الفاضلة في النفس وإزالة الرذائل عنها بشكل خاص، وإن كان هذا فيه نوع من الصعوبة في أول الأمر إلا أنه سيصبح بفضل التكرار يسيراً تتقبّله النفس لأنها مجبولة على ما عودت عليه، ولنضرب مثالين على هذا:

المثال الأول: إزالة صفة الجبن:

لو أراد أحدنا التخلص من صفة الجبن عن نفسه والاتصاف بالشجاعة فما عليه — بعد العزم والإرادة — إلا أن يكرّر الورود في المواقف الشديدة والمواطن المهولة وبصورة مستمرة حتى يزرع في نفسه الاتصاف بالشجاعة وبذلك يصبح ذلك الأمر المخيف أهون حالاً

١٠ [10] ولج: السح في الطرق.

١١ [11] غرر الحكم ص ٧١٨.

١٢ [12] البحار ج ٩١ ص ٩٦.

مما سبق، وإن لم يصل إلى حد الأمر الطبيعي بالنسبة إليه، كما يقول أمير المؤمنين (ع): (إذا

هبت أمرا فقع فيه فان شدة توقيه اعظم مما تخاف منه) [١٣]١٣.

المثال الثاني: إزالة صفة البخل:

من أراد التخلص من صفة البخل والاتصاف بالكرم فعليه الإقدام على البذل والعطاء

وبصورة دائمة، وبالتالي سيرى أنه اتصف بصفة الكرماء وابتعد عن صفات البخلاء، وإن

لم يكن ذلك بصورة كلية، وهذا هو معنى الترويض والتذليل للنفس الذي يشير إليه أمير

المؤمنين (ع) بقوله: (إنما هي نفسي أروضها) [١٤]١٤ بالتقوى لتأتي آمنة يوم الفرع الأكبر

وتثبت على جوانب المزلق) [١٥]١٥.

ونود أن نشير إلى أن هذه الطريقة - وهي تكرار العمل - ليست في جانب اكتساب

الفضائل فحسب بل تتأتى أيضاً في جانب اكتساب الرذائل، فمع تكرار الرذيلة باستمرار تصبح

راسخة في النفس يصعب التخلي عنها، وكما ينقل أن بعض الناس يجبرون على تناول

الحشرات والأفاعي والعقارب والفئران والديدان وغيرها مما لا يستساغ أكله، وفي أول الأمر

يكاد هذا المجبر أن يلفظ كبده عند تناولها ولكن مع مرور الزمن يعتاد عليها وتصبح أمراً

طبيعياً بل ربما عسر عليه الاستغناء عنها بعد ذلك.

[13]١٣ البحار ج ٧٠ ص ٣٦٢.

[14]١٤ أروضها بمعنى: أدللها.

[15]١٥ نهج البلاغة: كتاب الإمام إلى ابن حنيف رقم ٤٥.

الغرائز ومكافحة العادة:

من ضمن الطّرق السّليمة والمعقولة لمكافحة أيّ رذيلة تعودّ عليها الإنسان: استخدام

الغرائز الكامنة في النّفس، حيث إنّ في نفس الإنسان غرائزاً من الضروري إشباعها بما

يناسبها لكنّه يغفل عنها فعليه أن يستخدمها كسلاح للتخلّص من العادات المدمومة ؛ ولنضرب

مثلاً لتوضيح ذلك: المصاب بداء السكرّ والذي قضى ثلثي عمره في تناول السكرّيات

والأطعمة الشهية وتعودّ عليها، حينما ينبّهه الطبيب بالعواقب الوخيمة النّاجمة من تناول هذه

الأطعمة.. نراه يمتنع عن تناولها ويهجرها رغم تعودّه عليها، والسبب في ذلك هو: (غريزة

حب البقاء) إذ هي خير سلاح يستخدمه ضدّ ما تعود عليه سابقاً.

وهكذا بالنسبة للأمراض الأخلاقيّة فإنّ استخدام الغرائز نافع في الإقلاع عنها وهالك ثلاثة

أمثلة على ذلك:

المثال الأول: داء الغرور:

إن المصاب بهذا الداء إذا أراد التخلص منه فعليه أن يكرّس (غريزة) أخرى لمحاربة هذا

الداء، وهذه الغريزة هي عبارة عن (حب الانسجام مع المجتمع) وجلب الناس وبالتالي احتلال

المكانة المرموقة في قلوبهم، إذ أن المغرور يبنذه الآخرون ويسخطون عليه، يقول الإمام

الهادي (ع): **(من رضي عن نفسه كثر السآخظون عليه)** [١٦]١٦.

مضافاً إلى أن المغرور عرضة لسخط الله تعالى كما يقول أمير المؤمنين (ع): **(من رضي**

عن نفسه أسخط ربه) [١٧]١٧.

ويقول عليه السلام: **(من اسخط بدنه أرضى ربه ومن لم يسخط بدنه عصى**

ربه) [١٨]١٨.

المثال الثاني: داء الحسد:

إن المبتلى بهذا الداء إذا أراد التخلّص منه فليستخدم **(غريزة)** تتناسب ذلك وهي **(غريزة**

حب السلامة) إذ أنّ الحاسد يشغل فكره وذهنه وبالتالي يمرض جسمه، كما يقول أمير

المؤمنين (ع): **(العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد)** [١٩]١٩، مضافاً إلى كون الحسد

سبباً لضياح الأعمال، يقول الإمام الباقر (ع): **(إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار**

الحطب) [٢٠]٢٠.

[16]١٦ البحار ج ٧٢ ص ٣١٦.

[17]١٧ غرر الحكم ص ٣٠٨.

[18]١٨ البحار ج ٧٠ ص ٣١٢.

[19]١٩ البحار ج ٧٣ ص ٢٥٦.

[20]٢٠ البحار ج ٧٣ ص ٢٧٣.

المثال الثالث: داء التكبر:

إن المبتلى بهذا الداء إذا أراد التخلص منه فليستخدم (غريزة) أخرى ولنسميها (حب

المعزة) لدى الآخرين إذ أن الناس العقلاء يحتقرون المتكبر لتكبره ويعزّون المتواضع،

وبالتالي يصبح ذليلاً فيما بينهم إن تكبر كما يقول أمير المؤمنين (ع): **(من تكبر على الناس**

ذل) [21]21 فلكي يحفظ الإنسان عزّته وكرامته لدى الآخرين فليترك التكبر وليتواضع لهم.

والخلاصة التي نستفيدها من جميع ما سبق: إنّ الإنسان مهما تعوّد على ممارسة فعل ذميم

فإنه في نفس الوقت مزوّد بطاقات هائلة يستطيع بواسطتها التغلّب عليه وإبدال هذا الفعل بفعل

حسن مضاد له، خاصة إذا لم يكن هذا الفعل الذي يريد التخلص منه من النحو الذي تأصل في

النفس، وهذا من أسلم الطرق وأقربها وأنجحها للتخلص من العادات الذميمة والتخلي بالعادات

الفاصلة، لكن بشرط إتباع الخطوات التي ذكرناها آنفاً.

للقراءة والتأمل

قال أمير المؤمنين (ع): **(ميدانكم الأول أنفسكم فإن قدرتم عليها فأنتم على غيرها أقدر**

وإن عجزتم عنها فأنتم على غيرها أعجز فجربوا معها الكفاح أولاً) [22]22.

ويقول أيضاً: (لاروضن نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً،

وتقتنع بالملح مأدوماً) [٢٣]٢٣.

يقول ابن مسكويه وهو الاستاذ في علم الاخلاق: (اني تنبهت من نوم الغفلة بعد الكبر

واستحكام (العادة) فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات وجاهدت جهاداً عظيماً حتى

وفقتني الله لاستخلاصها عما يهلكها، فلا ييأس أحد من رحمة الله فان النجاة لكل طالب مرجوة

وأبواب الإفاضة أبداً مفتوحة..).

الأسئلة

السؤال الأول: ما معنى إن الإنسان يولد صحيفة بيضاء؟ واذكر قول الفلاسفة في ذلك؟

السؤال الثاني: ما هي العلاقة بين الموازنة في الملكات النفسية وبين صراط الآخرة؟

السؤال الثالث: ما العلاقة بين العادة والتربية؟

السؤال الرابع: ما هي شروط مكافحة العادة؟

السؤال الخامس: كيف نستطيع تقوية الإرادة؟

السؤال السادس: إن تكرار العمل يرسخ الملكات في النفس كما عرفنا، اذكر مثالين على

ذلك؟ (غير المذكورة في الدرس).

السؤال السابع: كيف نتخلص من صفة الغضب باستخدام الغرائز؟

الدرس التاسع

العوامل التي تضمن استمرار الاستقامة

صمام الأمان:

بعد أن عرفنا أهمية الإرادة ودورها في تغيير العادات الذميمة في نفس الإنسان، وعرفنا أيضاً كيف تتقوى هذه الإرادة، وبعد أن دخل الإنسان في قلب المعركة مع النفس الأمارة، فإن هذا المجاهد يحتاج إلى المدد من الأسلحة التي يطمئن بواسطتها بحتمية انتصاره في نهاية المعركة.

وهذا الدرس قد خصصناه لهذا الشأن حيث سنتحدث عن بعض الأمور التي أعتبرها الإسلام عوامل مساعدة للتطلي بالفضائل والتخلص عن الرذائل، بل هي صمام أمان يضمن استمرار الفرد على الاستقامة والابتعاد عن الانحراف بقدر كبير.

وقد أوصى علماء الأخلاق منذ القدم بالاهتمام بهذه العوامل وعدم الغفلة والتغافل عنها حيث أنها كالوقود الذي يدفع المحرك للأمام دائماً وبلا توقف، وهنا سيكون لإبليس وجنوده الدور في صد السالك في هذا الطريق عن هذه العوامل أو تصويرها له بأنها صعبة عسيرة، فليكن هذا السالك يقظاً حذراً من وسوسة هذا اللعين يلعنه بقلبه ولسانه وليستعن بالله تعالى على ذلك، ولأهمية هذه العوامل فإننا سنذكرها هنا ولو بصورة موجزة.

العامل الأول: المراقبة:

لكي يضمن السالك بقاء الأخلاق الحميدة في نفسه على الدوام فعليه أن لا يغفل لحظة عن نفسه فإن النفس أمانة بالسوء تميل بطبيعتها إلى الانحراف والرديلة والطغيان والفساد وتتمنى أن تبقى بلا رقيب كي تفعل ما يحلو لها وبكل حرية، ولذلك كان لزاماً على الإنسان السالك لتهديب أخلاقه أن يكون مع نفسه بمثابة التاجر الرقيب على حركات وسكنات شريكه، فما لم يراقبه فإنه قد يخونه، ولتكن المراقبة للنفس على الدوام ليلاً ونهاراً وفي كل مكان وليعتبر نفسه كدائرة وهو المسؤول عنها.

المقصود بالمراقبة:

المراقبة هي أن يلاحظ نفسه قبل الإقدام على أي قول أو عمل، ويجعل الله تعالى نصب

عينيه وليعتقد أنه تعالى مطلع على باطنه فضلاً عن ظاهره، يقول تعالى: **{ولقد خلقنا الإنسان**

ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} [١]١، ويقول تعالى: **{ألم يعلم**

بأن الله يرى} [٢]٢، ويقول تعالى: **{إن الله كان عليكم رقيباً}** [٣]٣، وكذلك يقول تعالى: **{ما**

يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر

إلا هو معهم أين ما كانوا} [٤]٤.

[1]١ ق آيه ١٦ .

[2]٢ العلق آيه ١٤ .

[3]٣ النساء آية ١ .

[4]٤ المجادلة آيه ٧ .

ويقول الرسول (ص) لبعض أصحابه: **(إستح من الله حق الحياء واعبد الله كأنك تراه**

فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [٥]هـ.

ويقول الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة: **(اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك..)** ويقول فيه أيضاً: **(عميت عين لا تراك عليها رقيباً..)**، وعلى الإنسان ان يقول لنفسه بلسان الحال: (إني عاهدت ربي الذي انعم علي بما لا يحصي من النعم ان أبقى في خدمته ولا اخرج عن أوامره طيلة هذا اليوم)، وليبق هذا العهد إلى أن يحين وقت المحاسبة، وبطبيعة الحال فان المراقبة لا تتعارض مع العمل اليومي للإنسان أو الذهاب والإياب والدراسة والتجارة وأشباهها والحاصل أن على كل واحد منا الاعتقاد جزماً لا يعتريه شك بأن العالم كله محضر ربوبي.

لا يمد رجليه:

ذكروا أن المقدس الأردبيلي (قده) لم يكن يمد رجليه مطلقاً طيلة أربعين سنة حتى عندما يريد النوم، وعندما سئل قال: **إنني أخجل أن أمد رجلي أمام ربي.**

بهذا فضلته عليكم:

كان بعض العلماء يرفع شاباً على تلاميذه كلهم فلاموه في ذلك فأعطى كل واحد منهم طيراً وقال: اذبحه في مكان لا يراك فيه أحد، فجاءوا كلهم بطيورهم وقد ذبحوها فجاء الشاب بطيره وهو غير مذبوح فقال له: لماذا لم تذبحه، فقال: قولك لا تذبحه إلا في موضع لا

يراك فيه أحد، لا يكون مكاناً إلا يراني الواحد الأحد، فقال: أحسنت ثم قال لتلاميذه: لهذا

رفعته عليكم وميزته عنكم، وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا
خلوت ولكن قل علي رقيب
تقل

وهذا هو شأن المتقي إذ يتذكر ربه عندما تسول له نفسه بالمعصية ويراه رقيباً عليه، يقول

تعالى: **{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}[٦٦].**

فإذا همّ الإنسان أن يسرق أو يغتاب أو يخون أو يطفف الميزان أو يظلم أو يفحش أو ينظر

نظرة محرمة.. الخ. فليتذكر أن الله تعالى مطلع على كل ذلك.

ماذا عن الله؟

كان عبد الله بن عمر في قافلة حجاج بيت الله الحرام فالتقوا براعي يرعى قطيعاً من

الأغنام، فأرادوا شراء خروف منه، فقال: إن هذه الأغنام ليست لي ولا يحق لي أن أبيع منها،

فقال عبد الله بن عمر: بعنا أحد الخراف بأي ثمن وإذا جاء صاحبها وعرف فقل: إن ذنباً

التهمه، وفجأة صرخ الراعي: وأين الله؟ وماذا عن الله؟ إن صاحب الخراف غير حاضر

أعتقد أن الله غير موجود أيضاً؟! فتأثر جميع الحجاج الذين كانوا في القافلة، ولما التقوا مع

صاحب الأغنام اشتروا منه الراعي الذي كان عبداً له وأطلقوه بعد أن اشتروا القطيع ووهبوه له، كل ذلك ببركة المراقبة لله تعالى والخوف منه.

كيف نعمق الشعور بمراقبة الله تعالى؟

إن الإسلام أرشدنا إلى أمور من شأنها تقوية عنصر الرقابة في النفس وهي:

- ١) أن يجتهد الإنسان في تحصيل اليقين (بالله وبالآخرة وبالثواب والعقاب) وذلك بالتزود من المعارف التي تبحث عن عظمة الله تعالى ومن خلال هذا اليقين وهذه المعرفة بالله سبحانه سيخافه ويهابه وبالتالي يمتنع عن ممارسة أي مخالفة له، يقول الرسول (ص): **(من كان بالله سيخافه ويهابه وبالتالي يمتنع عن ممارسة أي مخالفة له، يقول الرسول (ص): (من كان بالله أعرف كان من الله أخوف)**^[٧٧]، ويقول أمير المؤمنين (ع) في دعاء الصباح: **(من ذا يعرف قدرك فلا يخافك ومن ذا يعلم ما أنت فلا يهابك)**، ويقول الإمام السجاد (ع) في أحد ادعيته: **(سبحاتك عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك)**^[٨٨].

٢) أن يجعل فكره ملازماً للموت والبرزخ والقيامة والحساب الدقيق.

وا فضيحتاه:

روي أن أعرابياً أسلم على يد رسول الله (ص) فأمر بعض أصحابه أن يعلمه من القرآن

الكريم فعلمه سورة الزلزلة ومنها قوله: **(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة**

[7]٧ البحار ج ٧٠ ص ٣٩٣.

[8]٨ البحار ج ٨٦ ص ٢٧٧.

شراً يره}[٩]٩، فقال الأعرابي: كفاني هذا، ثم جاء إلى الرسول (ص) يسأله: هل يسأل عن

الأعمال يوم القيامة حتى ما كان بوزن الذرة؟ فقال: (ص): **(بلى)**، فصاح الإعرابي

وافضيحتاه، فقال (ص): **(رجع فقيهاً)**، أي أنه لما تيّن برقابة الله عليه وإطلاعه على جميع

تصرّقاته فقد استحق أن يكون فقيهاً.

٣) حضور مجالس العلماء المتقين والابتعاد عن مجالس الفساق والعصاة المنحرفين وأهل

الدنيا حيث أن القسم الأول يذكر بالله وبالآخرة وأما القسم الثاني فإنهم أموات يميّتون القلوب،

يقول (ص): **(أربع يمتن القلوب: الذنب على الذنب وكثرة مناقشة النساء — يعني**

محادثتهن — وممارسة الأحمق تقول ويقول ولا يرجع إلى خير ومجالسة الموتى فقليل له يا

رسول الله وما الموتى؟ قال: كل غنيّ مترف) [١٠]١٠.

المقصود بكثرة مناقشة النساء الخوض معهن في كلام لا صلة له بالآخرة، كالقصص

الفكاهية والجدال فيما لا فائدة فيه، أما إذا كان لتبليغ حكم شرعي أو رفع شبهة عقائدية فهذا

أمر مطلوب عقلاً وشرعاً، وحياة للقلوب وليس موتاً لها بشرط الانتباه حتى في هذه الحالات

الراجعة من مكائد الشيطان.

[9]٩ الزلزلة آية (٦-٧).

[10]١٠ البحار ج ١٠٣ ص ٢٤٢.

٤) ممارسة العبادات بشتى أنواعها بصورة مستمرة كالصلاة والذكر وقراءة القرآن..

الخ، لأنها تقرب إلى الله تعالى وبالتالي يترسخ لدى العبد بأن جميع تصرفاته بل أنفاسه

محصاة عليه.

الشباب المجتهد في العبادة:

رأى بعضهم شاباً حسن العبادة والاجتهاد فقال: يا فتى على ما بنيت أمرك؟ فقال: على

أربع خصال، فقال: وما هي؟ فقال: علمت أن رزقي لا يفوتني منه شئ وإن وعد الله حق

وصدق فاطمأننت إلى وعده، والثانية علمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، والثالثة

علمت أن أجلي يأتيني بغتة فبادرته، والرابعة علمت أنني لا أغيب عن نظر الله تعالى في

سري وعلايتي فأنا مراقبه في كل أحوالي، وهذا من أثر العبادة والاجتهاد فيها.

يقول تعالى: **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله**

خبير بما تعملون، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم

الفاسقون{١١}[١١].

ويقول تعالى في الحديث القدسي: **(إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي**

ذكروا عظمتي فراقبوني..).

والحاصل أن العبد إذا كان على يقين من اطلاع الباري على ضميره فكيف يقدم على مخالفته وعصيانه وهو جبار السموات والأرض عزيز ذو انتقام؟ يقول الإمام السجاد (ع) في مناجاة الراجين: **كيف أنساك ولم تنزل ذاكري وكيف ألهمك عنك وأنت مراقبي؟!** وهذا معنى المراقبة وهي أحد العوامل التي تضمن الاستقامة لدى العبد.

العامل الثاني: المحاسبة:

إذا كان للمراقبة الدور الفعال في مجال الحفاظ على الاستقامة فإن للمحاسبة الدور المهم والمناسب أيضاً في هذا المجال إذ هي وسيلة لحفظ العلاقة التي ركزتها المراقبة للنفس وهي علاقة الإنسان بربه.

المقصود بالمحاسبة:

المحاسبة هي النظر فيما أقدمت عليه النفس من قول أو فعل فيما مضى من الوقت، فإن أنت بالأوامر المكلفة بها على وجهها الأكمل ولم تقصر في شئ منها، فعليه أن يشكر الله تعالى على التوفيق ويكلف نفسه بذلك الشكر ويحثها على المداومة على الطاعات ويرغبها فيها.

وأما إذا كانت النفس قد قصرت في شئ من الأوامر أو فوتت شيئاً من الطاعات أو أنها ارتكبت مخالفة منهيّاً عنها، فعليه أن يقف معها موقف المعاتب اللائم ويؤنيها ويعذلها ويصارعها على أخطائها وتصويرها، ومن ثم يأتي دور المعاقبة الذي سنتكلم عنه بعد قليل.

ومحاسبة الإنسان لنفسه يجب أن تكون في الدقة أكثر مما يصنع التاجر بشريكه، فكما يفتش التاجر في حساب الدنيا عن أدنى نقص فمن الأولى أن يكون مع نفسه لأن ذلك يتعلق بأمر الآخرة، يقول الرسول (ص): (لا يكون العبد مؤمناً حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه والسيد عبده)^{[12]١٢}.

ويقول (ص): (لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه، أمن حل ذلك أم من حرام)^{[13]١٣}.

المحاسبة عند أمير المؤمنين عليه السلام:

سئل أمير المؤمنين (ع) عن كيفية محاسبة النفس، فقال: (إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه وقال: يانفس إن هذا يوم مضى عليك لا يعود أبداً، والله سائلك عنه فيما أفنيته، فما الذي عملت فيه؟ أذكرت الله أم حمدتيه؟ أقضيت حق أخ مؤمن؟ أنفست كربته؟ أحفظتيه بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظتيه بعد الموت في مخلفيه؟ أكففت عن غيبة مؤمن بفضل جاهك؟ أأعنت مسلماً؟ ما الذي ضيعت فيه؟ ثم قال: فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنه جرى

[12]١٢ البحار ج ٧٠ ص ٧٢.

[13]١٣ البحار ج ٧٧ ص ٨٦.

منه خير حمد الله عز وجل وكبره على توفيقه، وإن ذكر معصية أو تقصيراً، استغفر الله عز

وجل وعزم على ترك معاودته) [١٤]١٤.

أهمية المحاسبة:

تعتبر محاسبة النفس عند العارفين من الطاعات الواجبة وجزء من حياتهم اليومية وإن من

لم يحاسب نفسه يعد أحمقاً غير عاقل أو غير معتقد بحساب يوم القيامة، إذ كيف يغفل عن

محاسبة النفس التي تسقط حساب يوم القيامة أو توجب خفته على الأقل؟ وهذا ما أشار إليه

الرسول (ص) إذ يقول: (أكيس الكيسين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وأحمق

الحمقى من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) [١٥]١٥.

ويقول (ص): (يا أباذر حاسب نفسك قبل أن تحاسب فإنه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك

قبل أن توزن وتجهز للعرض الأكبر يوم تعرض لا يخفى على الله خافية) [١٦]١٦.

ويقول الإمام الصادق (ع): (فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإن في القيامة خمسين موقفاً

كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون) [١٧]١٧، ثم تلا هذه الآية: (يَوْمَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ

سنة) [١٨]١٨.

[14]١٤ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٢٠.

[15]١٥ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٨.

[16]١٦ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٩.

[17]١٧ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٩.

ومن خلال هذه الكلمات النورانية نعرف أهمية المحاسبة ومقدار ضرورتها كما نعرف

الموقع الحساس لها في جانب الاستقامة.

برنامج المحاسبة:

لكي تعطي المحاسبة ثمارها يانعة وتؤدي الغاية المنشودة منها فلا بد من وضع برنامج لها

وذلك بمراعاة جانبين:

الجانب الأول: الفترة الزمنية:

بأن تكون فترات محاسبة النفس متقاربة نسبياً لكيلا تجد مجالاً لمعاودة الأخطاء التي

اقترفتها، وقد حددت كثير من النصوص الفترة الزمنية بين محاسبة وأخرى على أن تكون

مرة بين اليوم واللييلة بحيث يعيد الانسان الفكر في كل ما فعله منذ جلوسه من النوم صباحاً

إلى الساعة التي هو فيها وهي آخر ساعة من اليوم، قال الإمام الصادق (ع): **(حق على كل**

مسلم يعرفنا أن يعرض عمله في كل يوم وليلة على نفسه فيكون محاسب نفسه، فإن

رأى حسنة استزاد منها وإن رأى سيئة استغفر منها لئلا يخزي يوم القيامة) [١٩] ١٩.

١٨ [18] المعارج آية ٤.

١٩ [19] ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٩.

ويقول الإمام الكاظم (ع): (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل شيئاً خيراً

استزاد الله منه وحمد الله عليه وإن عمل شيئاً شراً استغفر الله وتاب إليه) [٢٠]٢٠.

ويفضل أن يركز على المحاسبة يومي الإثنين والخميس لأن الأعمال تعرض فيها على

الرسول (ص) وأهل البيت (ع) وكذلك يجعل محاسبة شهرية وسنوية شاملة.

الجانب الثاني: الهدوء النفسي:

فلا بد من استغلال الوقت لها واختيار الحالة التي تكون النفس فيها هادئة غير مضطربة

وغير مشغولة بشغل يلهيها عن المحاسبة وإلا فقد تصاب بالنفور وتكون النتيجة عكسية سلبية

بدلاً من أن تكون إيجابية، وقد اهتمت النصوص الإسلامية بهذا الجانب:

يقول أمير المؤمنين (ع): (ما أحق الإنسان أن تكون له ساعة لا يشغله شاغل يحاسب

فيها نفسه فينظر فيما اكتسب لها وعليها في ليلها ونهارها) [٢١]٢١.

ويقول الإمام الصادق (ع): (إذا أويت إلى فراشك فانظر ما سلكت في بطنك وما كسبت

في يومك واذكر أنك ميت وأن لك معاداً) [٢٢]٢٢.

[20]٢٠ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٩.

[21]٢١ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٩.

[22]٢٢ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦١٩.

فلاحظ التأكيد على ضرورة الهدوء النفسي أثناء المحاسبة والمعاينة وغالباً ما تكون النفس

كذلك ليلاً وبالذات عندما يخلو بنفسه على فراشه في حالة من الاسترخاء والابتعاد عن

الضوضاء والإنشغالات الفكرية.

يا ويلتاه!!

حكى أن رجلاً يقال له توبة ابن الصّمه كان محاسباً لنفسه في أكثر أوقات ليله ونهاره

فجلس مع نفسه ذات يوم ليحاسبها محاسبة كلية لجميع أيام حياته فإذا عمره ستون عاماً،

فحسب أيامها فكانت أحد وعشرين ألف يوماً وخمسمائة يوم، فقال: يا ويلي ألقى كذا مالكا —

أي خازن النيران — بأحد وعشرين ألف ذنب؟! فصعق صعقة كانت فيها نفسه!!! [٢٣]٢٣

ثمار المحاسبة:

عند محاسبة الإنسان نفسه بالطرق السليمة فإنه سيجني ثمارها وآثارها بصورة جليلة

واضحة ونحن نذكر بعض هذه الثمار على سبيل المثال لا الحصر:

(١) **معرفة العيوب وإصلاحها:** يقول أمير المؤمنين (ع): **(من حاسب نفسه وقف**

على عيوبه وأحاط بذنوبه واستقال الذنوب واصلح العيوب) [٢٤]٢٤، ويقول (ع): **(ثمره**

المحاسبة صلاح النفس) [٢٥]٢٥.

[23]٢٣ الأنوار البهية ص ٢٥٣.

[24]٢٤ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٢٠.

(٢) **الربح:** إن التاجر لن يربح إلا إذا داوم تفتيش شريكه أو عامله بين فترة وأخرى

وهكذا من حاسب نفسه، يقول أمير المؤمنين (ع): **(من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها**

خسر ومن خاف أمن) [٢٦]٢٦.

(٣) **الأمان من الله تعالى:** يقول أمير المؤمنين (ع): **(حاسبوا أنفسكم تأمنوا من الله**

الرهب وتذكروا عنده الرغب) [٢٧]٢٧.

(٤) **السعادة:** يقول أمير المؤمنين (ع): **(من حاسب نفسه سعد)** [٢٨]٢٨.

والحاصل أن للمحاسبة دوراً لا ينكر في إصلاح النفس والتخلي بالخصال الحميدة والابتعاد عن الرذائل الذميمة وبالتالي ضمان أكثر لاستمرار الاستقامة، والمأمول أن تتحول المحاسبة عند السالك إلى ملكة بحيث يصبح هذا العمل لديه سهلاً للغاية، وعندها سيشعر باللذة والأنس في طاعة الله تعالى وترك معاصيه، مضافاً إلى النجاة في الآخرة. للاطلاع أكثر في مجال محاسبة النفس يراجع كتاب (محاسبة النفس للسيد ابن طاووس).

العامل الثالث: المعاقبة:

[25]٢٥ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٢٠.

[26]٢٦ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٢٠.

[27]٢٧ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٢٠.

[28]٢٨ ميزان الحكمة ج ١ ص ٦٢٠.

بعد أن تتحقق المحاسبة ويتعرف الإنسان من خلالها على التقصير من النفس في بعض الحقوق الواجبة عليها فلا ينبغي أن يقف إلى هذا الحد فقط بل عليه أن يستوفي منها كل ذلك، ويعاقبها على كل تقصير لأنه لو أهملها سهل عليه ارتكاب المخالفات وتعود عليها وأنس بها وبالتالي يصعب فطام نفسه عنها.

والمعاقبة تعد عاملاً مكملاً لا غنى عنه في شق الطريق نحو الفضائل والسلوك إلى الله تعالى.

كيفية المعاقبة:

يكون مقدار العقوبة التي ينزلها الإنسان على نفسه بمقدار التقصير ونوعه، فإذا فوتت النفس الفرائض التي هي رأس مال الإنسان طالبها بقضائها على أتم وجه وإذا أدتها ناقصة نقصاناً لا يوجب القضاء، كلفها بالنوافل إجباراً لذلك النقص، وإذا تناولت لقمة حرام عاقبها بالجوع والصوم عدة أيام، وإذا اغتابت مؤمناً عاقبها بالالتزام بالصمت الطويل إلا عن ذكر الله تعالى، وإذا أساءت الظن بالآخرين عاقبها بإرسال هدية إلى المظنون فيهم، وإذا حسدت ألزمها بزيارة المحسود والسلام عليه، وإذا نظرت إلى محرم عاقبها بمنع النظر إلى ما تستلذه النفس من المباحات مدة معينة، ويعاقبها على السكوت في موضع الكلام والكلام في موضع السكوت، بل يعاقبها على التفكير في غير محله والخواطر الفاسدة بما يناسب ذلك من العقاب، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات.

التصدق بالبستان عقاباً:

روي أن أحد صحابة الرسول (ص): يدعى أبو طلحة الأنصاري كان يصلي يوماً في بستان له وفي أثناء الصلاة وقع بصره على طائر فوق شجرة يريد الخروج من وسطها فلفت ذلك الطائر انتباهه بحيث لم يعلم كم صلى من الركعات، ولما انفلت من صلاته أسرع إلى الرسول (ص): وشرح له الحال، ثم قال: لقد تصدقت بهذا البستان، ثم جعله فعلاً بيد الرسول (ص): يصرفه كيف شاء وهكذا عاقب هذا الصحابي نفسه بالتصدق بجميع البستان بسبب إنشغاله في فريضة واحدة!! [٢٩]٢٩

لا يشرب البارد طيلة حياته:

ينقل أن بعضهم نظر إلى امرأة حراماً فعاقب نفسه بعدم شرب الماء البارد طيلة حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش!! وهذه الحكايات السابقة متعلقة بمعاقبة الإنسان لنفسه إذا كان التقصير فيما بينه وبين ربه فتكون بهذه الكيفية المذكورة، أما إذا كان التقصير متعلقاً بالآخرين وبظلمهم فلا بد أن تكون المعاقبة بالتسامح والاعتذار منهم وإرجاع حقوقهم إليهم.

والخلاصة: من كل ما تقدم يتضح لنا جلياً أهمية هذه العوامل الثلاث (المراقبة والمحاسبة

والمعاقبة) في إصلاح النفس والسلوك نحو الله تبارك وتعالى، فعلى الإنسان أن لا يغفل عنها

وإلا فإنه سيصل أثناء رحلته المباركة إلى طريق مسدود مظلم لا نور فيه، ويكون ظالماً لنفسه أو ربما لغيره، وننبه على أن تطبيق هذه العوامل الثلاث تحتاج إلى إقناع النفس بأهميتها أولاً وإلى قوة الإرادة ثانياً وبالتالي ممارستها بشكل دائم لتصبح ضرورة كبقية الفرائض اليومية.

للقراءة والتأمل

روي أن رجلاً قال بحضرة أمير المؤمنين (ع): استغفر الله، فقال له: (ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ ان الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العودة إليه أبداً، والثالث ان تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعه، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها، والخامس ان تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس ان تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: استغفر الله) [٣٠].

الأسئلة

السؤال الأول: ما هو دور العوامل الثلاث في الإستقامة بصورة عامة؟

السؤال الثاني: اذكر آية تشير إلى رقابة الله للخلق، مع حادثة تدل على ذلك أيضاً؟

السؤال الثالث: كيف نعلم الشعور برقابة الله تعالى؟

السؤال الرابع: هات حديثاً يدل على أهمية المحاسبة؟

السؤال الخامس: لكي تؤدي المحاسبة وظيفتها لابد من مراعاة جانبين ما هما؟

السؤال السادس: اذكر ثماراً ثلاثة لمحاسبة النفس؟

السؤال السابع: اذكر مثلاً على كيفية معاقبة الإنسان لنفسه؟

الدرس العاشر

علاقة الصداقة بالأخلاق

الصداقة تغذي الأخلاق:

إن الحديث عن الأخلاق لا ينفصل عن الحديث عن الصداقة، إذ أن للصداقة الأثر الكبير في الاستقامة أو الانحراف فالصديق إن كان مستقيماً استقام صديقه وإن كان منحرفاً انحرف، فهو يتأثر ويتكهرب به لاشعورياً، وبالتالي فإن الصداقة تغذي الإنسان بالأخلاق سلباً أو إيجاباً فهي سلاح ذو حدين.

وبالتالي فمسألة الصداقة والصحة ليست مسألة عادية وهامشية في حياة الإنسان بل هي قضية خطيرة ومهمة جداً ومصيرية في الوقت ذاته لارتباطها بسلوك الإنسان ونحن نجد أن عنوان الأخوة والصداقة قد احتل مساحة كبيرة في النصوص الإسلامية وذلك اعتناءً بها، لذلك كان من اللازم علينا التعرض لهذه المسألة من خلال عناوينها المناسبة، لما نحن بصدد من التكلم عن الأخلاق والسلوك نحو الفضائل ولكن قبل الخوض فيما يتعلق بمسألة الصداقة أرى من المناسب عرض قضية مهمة لها صلة بهذا الموضوع وهي قضية العزلة والاختلاط — والتي تعرض لها علماء الأخلاق في مصنفاتهم — لنرى من خلال ذلك ما طرح حولهما من آراء، فنقول: إن البعض يتساءل عن الحاجة للصداقة والمعاشرة، فما هو الداعي أساساً

لمخالطة الآخرين؟ وما هي الثمرة المكتسبة من وراء ذلك؟ إذ أن الأفضل الإنزواء والعزلة

عنهم وعدم معاشرتهم!!

نعم هكذا اعتقد جماعة وبنو علي أن سلامة الأخلاق تتوقف على ذلك.

محاسن العزلة:

لقد أيدت المجموعة المتقدمة إعتقادها هذا بما يلي:

أولاً: الابتعاد عن الانحرافات:

إن الكثير من الانحرافات متوقفة على التعامل مع الآخرين كالحسد والتكبر والغيبة والرياء

والظلم وغيرها، أما العزلة فلا تؤدي إلى هذه الأمور.

ثانياً: القرب من الله:

العزلة سبب للقرب من الله تعالى أكثر وذلك عن طريق التفرغ للعبادة.

ثالثاً: التفكير:

إن التفكير والتأمل في أسرار الكون يحتاج إلى صفاء الذهن ولا يكون ذلك إلا بالعزلة.

رابعاً: الموافقة للقرآن والسنة:

فقد وردت آيات تشير إلى اعتزال فئة من المؤمنين كأصحاب الكهف مثلاً الذين اعتزلوا

الناس ولجأوا إلى الكهف فصار ذلك سبباً لشمول الرحمة لهم، يقول تعالى **﴿وَإِذْ اعتزلتموهم**

وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم

مرفقاً^[1]، كما وردت من السنة المطهرة أخبار في هذا الشأن أيضاً كقول أمير المؤمنين

(ع): **(لا سلامة لمن أكثر مخالطة الناس، الوحدة راحة والعزلة عباده)**[2]، وقول الإمام

الصادق (ع): **(صاحب العزلة متحصن بحصن الله ومحترس بحراسته فيا طوبى لمن تفرد به**

سراً وعلانية)[3]، إلى غير ذلك من النصوص.

وقد يتأثر البعض بهذا القول فيؤثر العزلة والانزواء عن الآخرين ويختار الوحدة

والانفراد، بينما يجب علينا أن لا نتسرع في الحكم.

مساوئ العزلة:

إذا كانت المجموعة الآتفة الذكر قد أيدت العزلة لما لها من محاسن وذمت الاختلاط، فقد

خالفتها مجموعة أخرى إذ أيدت الاختلاط لما له من منافع وذمت العزلة لما لها من مساوئ

وأضرار:

[1] الكهف آية ١٦.

[2] البحار ج ٧٨ ص ١٠.

[3] البحار ج ٧٠ ص ١١٠.

أولاً: الانحراف الفكري:

فكم إنسان إعتزل الناس لفترة طويلة ثم خرج إليهم بأفكار خاطئة واعتقادات فاسدة وبثها بين الناس معتقداً أنها سليمة، بينما لو كان متعاملاً مع الآخرين لأنكشف له فساد تفكيره.

ثانياً: الجهل:

إذ أن كثيراً من المعارف لا سبيل للحصول عليها إلا عن طريق معاشره العلماء والعارفين والاستفادة من تجاربهم.

ثالثاً: هدر الطاقات:

فما اكثر الفضلاء والعلماء الذين انزروا بين جدران أربعة ولم يعيشوا مع الآخرين لكي يستفاد من أفكارهم وعلومهم ولا استطاعوا هم تحقيق أي تقدم أو نجاح مرموق في المجتمع، وهكذا نفس الكلام ينطبق على كل ذي خبرة يستفيد منها الآخرون فيبخل بها بسبب الركون للعزلة.

رابعاً: الأمراض النفسية:

حيث أن العزلة تؤدي إلى الضجر والقلق النفسي نتيجة عن عدم مفاكهة الناس وملاطفتهم، وفي الأخير تؤدي إلى التوتر العصبي والمرض النفسي.

خامساً: الحرمان من اكتساب الكثير من الفضائل وعدم القدرة على تطبيقها إطلاقاً:

إذ أن كثيراً من الأخلاقيات لا تعد فضيلة في العزلة أبداً كالتواضع وحب الآخرين

والعطف والكرم والحلم وكظم الغيظ وأمثالها، فالمفضل للاعتزال عن الآخرين لمن يتواضع؟

وكيف يكون كريماً أو حليماً؟ وكيف يعطف على الناس ويترجم محبته لهم؟!

هذا مضافاً إلى أننا نجد أن الابتعاد عن بعض الرذائل عن طريق العزلة لا يعد فخراً لأنها

مننقبة بانتفاء الموضوع كما يقال، مثل الكذب والغيبة والتكبر وأشباهها، إذ كيف يوصف بأنه

غير متكبر على الآخرين وهو في عزلته؟ وكيف يوصف بأنه لا يفتاب وهو منطو على

نفسه؟ وكيف يعرف بأنه صبور على الأذى وهو منزو عن الآخرين؟ بل الدين هو المعاملة

وكيف يتعامل من اعتزل.

سادساً: الحرمان من الثواب الجزيل:

حيث أن الإسلام حث على بعض العبادات بصورة جماعية كالحج وصلاة الجماعة

وحضور الأعياد ومجالس الذكر ومجالس سيد الشهداء (ع) .. إلى غير ذلك، فكيف يحضر هذه

العبادات وهو في عزلته؟

التحقيق في المسألة:

ما تقدم هو كل ما استعرضه الطرفان وأورداه من أدلة على مختار يهما، إلا أن المسألة تحتاج إلى شيء من التأمل، فإن ما انتهى إليه الطرفان إنما كان نتيجة خلط بين نحوين من العزلة ونحوين من الاختلاط وعدم التمييز بين الصالح منهما وغيره ولكن الذي يقتضيه الحق هو التفصيل في العزلة والاختلاط بين نحوين كما يلي:

العزلة على نحوين:

النحو الأول من العزلة هو الانقطاع التام عن المجتمع حتى فيما يحتاجون إليه من معايشة.

والنحو الثاني منها هو ما يتصل بالأمور الخاصة كالنظر في شئون نفسه ومعايشه وعياله والقيام بأمره العبادية وغيرها وهذه الأمور تكون فيما فضل عن وقت المعايشة وأداء الحقوق الاجتماعية من صلة الأرحام وعيادة المرضى وتشبيح الجنائز وحضور مناسبات أهل البيت (ع) .. إلى غير ذلك.

والنحو الأول مذموم وتحمل عليه الأخبار الناهية عن العزلة، والنحو الثاني ممدوح وتحمل عليه الأخبار الأمر بالعزلة.

الاختلاط على نحوين:

النحو الأول من الاختلاط هو المعاشرة المطلقة بحيث يكون الفرد في تمام أوقاته متنقلاً من مكان إلى مكان ومن منزل إلى آخر وفي جلسات محادثة ومفاكهة وبلا قيود.

والنحو الثاني منه هو المعاشرة المحدودة والتي يرتضيها العقل ويحث عليها الشرع المقدس كصلة الأرحام وقضاء حقوق الإخوان وعيادة المرضى وحضور الجنائز والسعي في قضاء حوائج المؤمنين وحضور حلقات العلم ومجالس الذكر لأهل البيت (ع) والمناسبات الإسلامية والجمعة والجماعة وأمثالها.

والنحو الأول مذموم وتحمل عليه الأخبار الناهية عن الاختلاط لما له من مفسد وأضرار، والنحو الثاني ممدوح ويقتضيه واجب المعاشرة وتحمل عليه الأخبار الأمرة بالاختلاط، كقول الرسول (ص): **(المؤمن يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) [٤]٤.**

ويقول لرجل أراد الجبل ليتعبد فيه: **(لصبر أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خالياً أربعين سنة) [٥]٥.**

نظرة القادة للمسألة:

[4]٤ ميزان الحكمة ج ٣ ص ١١٩٦.

[5]٥ ميزان الحكمة ج ٣ ص ١٩٦٦.

ولأن الأئمة (ع) هم القدوة فقد اتبعوا الصواب في الموازنة بين العزلة والاختلاط وهذه

سيرتهم قد أثبتت بأنهم لم يتفوقوا في منازلهم ولم يتخذوا صوامع للاعتزال عن الناس بل لم

يغيبوا عن الساحة للإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنهم مدحوا هذا النوع

من الاختلاط كما عن رسول الله (ص) أنه قال: **(خياركم أحسنكم أخلاقاً الذين يألفون**

ويؤلفون) [٦]٦، ويقول الإمام الباقر (ع) حينما سمع رجلاً يقول: اللهم أغني عن خلقك، قال:

(ليس هكذا إنما الناس بالناس ولكن قل اللهم أغني عن شرار خلقك) [٧]٧، وفي الوقت ذاته

نراهم (ع) يقضون قسماً من أوقاتهم في العزلة الممدوحة، يقول الرسول (ص): **(الوحدة خير**

من جليس السوء) [٨]٨ وهذا إشارة إلى نم الاختلاط السيئ، ويبرر الإمام الصادق (ع) عزله

حيناً من الزمان بقوله: **(فسد الزمان وتغير الأخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد)** [٩]٩،

ويمدح (ع) صاحب العزلة ولكنه يذكر لها شروطاً لكي تكون من القسم الممدوح فيقول:

(صاحب العزلة متحصن بحصن الله ومحترس بحراسته فيأ طوبى لمن تفرد به سراً وعلانية

وهو يحتاج إلى عشرة خصال: علم الحق والباطل وتحبب الفقر واختيار الشدة والزهد

[6]٦ البحار ج ٧٧ ص ١٥٠.

[7]٧ البحار ج ١٣ ص ٤٢٧.

[8]٨ البحار ج ٤٧ ص ٦٠.

[9]٩ البحار ج ٤٧ ص ٦٠.

واغتنام الخلوّة والنظر في العواقب ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود وترك العجب

وكثرة الذكر بلا غفلة.. [١٠]١٠.

وأخيراً نقول: إن الفرد يستطيع العزلة أثناء اختلاطه بالناس، بمعنى أنه يعاشرهم بقلبه لا

بقلبه وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق (ع) بقوله: (طوبى لعبد نومه [١١]١١) عرف الناس

فصاحبهم ببدنه ولم يصاحبهم في أعمالهم بقلبه فعرفهم في الظاهر ولم يعرفوه في

الباطن [١٢]١٢.

الأصدقاء صنفان:

بعد أن قطعنا مشواراً مع قضية العزلة والاختلاط وبيّنا مقصود الأخبار الشريفة الواردة

في المدح أو الذم لهما، نرى من اللازم العودة إلى الموضوع الأساسي في هذا الدرس وهو

الصدّاقة، ونريد هنا أن نرسم الخطوط العريضة لأصناف الأصدقاء الذين نعاشرهم.

والأصدقاء صنفان كما يقول أمير المؤمنين (ع) حين سأله رجل: عن الإخوان؟ فقال (ع):

(الإخوان صنفان، إخوان الثقة وإخوان المكاشرة [١٣]١٣)، فأما إخوان الثقة: فهم الكف

والجناح والأهل والمال فإذا كنت من أخيك على حد الثقة فابذل له مالك وبدنك وصاف من

[10]١٠ البحار ج ٧٠ ص ١١٠.

[11]١١ نومه: من لا يؤبه به وهو خامل الذكر لا يدري الناس ما في نفسه.

[12]١٢ البحار ج ٦٩ ص ٢٧٢.

[13]١٣ المكاشرة: وكاشره كشف عن أنيابه وهي هنا كناية عن التبسم.

صافاه وعاد من عاداه وأكتم سره وعيبيه وأظهر منه الحسن، واعلم أيها السائل أنهم أقل

من الكبريت الأحمر، أما إخوان المكاشرة: فإنك تصيب لذتك منهم فلا تقط عن ذلك منهم ولا

تطلب ما وراء ذلك عن ضميرهم وابدل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة

اللسان) [١٤] ١٤.

فمن خلال هذا النص نفهم أن المعاشرة قد تكون خاصة وهي التي عبر عنها أمير

المؤمنين (ع) بإخوان الثقة الذين يتصفون بصفات سنتعرض لبعضها لاحقاً.

وقد تكون المعاشرة عامة وهي التي عبر عنها الإمام (ع) بإخوان المكاشرة وهم الذين لا

تربطك بهم الثقة الكاملة وإنما هم للمزاح والمعاملة العامة فباستطاعتك الجلوس معهم والتحدث

إليهم والسفر برفقتهم والاستفادة من أفكارهم وتجاربهم وهم كذلك يستفيدون من أفكارك

وتجاربك لكن لا تلقي إليهم بأسرارك الخاصة ولا تطلب منهم أكثر من هذا المقدار من

المعاملة، وبهذا يتبدد ذلك الوهم القائل بأن الصداقة لا يمكن ان تتحقق إلا بصورتها المطلقة

وبلا قيود.

من نصادق؟

للصداقة أثر بارز في حياة الإنسان وسلوكه وأخلاقه فهو مرآته التي ينظر بها وبه يعرف

وكما قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن

فكل قرين بالمقارن يقتدي

قرينه

ولا تصحب الأردى فتردى مع

إذا كنت في قوم فصاحب

الردى

خيارهم

ويقول الرسول الأكرم (ص): **(المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)** [١٥].

ولسنا هنا بصدد التحدث عن جميع الصفات التي يجب توفرها في الصديق لكن ما يعيننا هنا هو التأكيد على ضرورة مصادقة الأخيار وذوي الفضائل والتقوى والسلوك القويم والسبب في ذلك أن صفاته ستعكس لا إرادياً على الطرف الآخر فيتأثر به فيسلك مسلكه وهذه هي

الغاية من الصداقة التي أكد عليها الإسلام، ولو كان كل منهما مستقيماً ذا سلوك قويم من أول

الأمر ففائدة الصداقة هنا تأتي في المحافظة والإبقاء على هذه الاستقامة والسلوك إلى أمد

أطول وتترسخ بصورة أكثر. يقول الرسول (ص): **(عاشر أهل الفضل تسعد وتنبل)** [١٦].

وفي الحديث الشريف: **(لا تجلسوا إلا عند من يدعوكم من خمس إلى خمس، من الشك**

إلى اليقين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى المحبة، ومن الرياء إلى الإخلاص،

[15] ١٥ البحار ج ٧٤ ص ١٩٢.

[16] ١٦ غرر الحكم ص ٤٢٩.

ومن الرغبة في الدنيا وأمورها إلى الزهد) [١٧]١٧، وفي حديث آخر: (اصحب من إذا

صحبتك زانك..) [١٨]١٨.

وهذا بخلاف مصادقة الفجار والأشرار وذوي الرذائل والأخلاق السيئة والسلوك المنحرف

فإنهم سيتركون بصمات تلك الصفات على الطرف الآخر، يقول أمير المؤمنين (ع): (إياك

ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق) [١٩]١٩ ويقول الإمام الصادق (ع): (لا تصحب

الفاجر فيعلمك من فجوره) [٢٠]٢٠، ويقول (ع): (..واحذر صحابة من يفيل رأيه وينكر

عمله فإنّ الصاحب معتبر بصاحبه) [٢١]٢١.

ويقول الإمام الجواد (ع): (إياك ومصاحبة الشرير فإنه كالسيف المسلول يحسن منظره

ويقبح أثره) [٢٢]٢٢، وفي هذا النص بالذات تحذير لمن يصادق شخصاً من أجل منظره

وصورته الجميلة أو من أجل ثروته ولكنه كالحية لين مسها مميت سمها، وكما يقول

الشاعر:

[17]١٧ تنبيه الخواطر ج ٢ ص ١١٠.

[18]١٨ البحار ج ٤٤ ص ١٣٨.

[19]١٩ البحار ج ٣٣ ص ٥٠٨.

[20]٢٠ البحار ج ٧٤ ص ١٩١.

[21]٢١ نهج البلاغه رسالة رقم ٦٩.

[22]٢٢ البحار ج ٧٤ ص ١٩٨.

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب

ولذلك فالاختبار للشخص قبل مصادقته أمر ضروري، يقول أمير المؤمنين (ع): (لا

يعرف الناس إلا بالاختبار) [٢٣]٢٣، ويقول (ع): (من إتخذ أخاً من غير إختبار ألجأه

الاضطرار إلى مرافقة الأشرار) [٢٤]٢٤.

وقد رسم الإسلام الخارطة التي يعرف بها الفرد الصديق المخلص من غيره، ولأننا التزمنا

الإختصار فسوف نكتفي بهذا المقدار ولعلنا نعود إليه في الموضوع المناسب.

اتبع من بيكيك:

تميل النفس في كثير من الأحيان إلى الشخص الذي يثني عليها ويمدحها ويجاملها حتى

فيما لو أخطأت وقصرت وارتكبت الرذائل، وتفر ممن يسدي إليها النصيحة ويذكرها بعيوبها

ولهذا السبب ستبقى هذه النفس على خطأها وتقصيرها ولن يبدل رذائلها إلى فضائل أبداً بل

سيتفاقم الأمر ويزداد سوءاً.

فمن أجل أن نتعرف على عيوبنا وأخطاءنا لا بد أن نختار الصديق الذي يكون كالمرآة لنا

فيذكرنا عيوبنا ويوقفنا على أخطاءنا وسلبياتنا من أجل إصلاحها، وعلينا أن نعود أنفسنا على

تقبل هذا الأمر واتباع هذا الصديق والأنس به وعدم عصيانه والتضايق منه، فإن الصديق

[23]٢٣ البحار ج ٧٨ ص ١٠.

[24]٢٤ غرر الحكم ص ٦٩٥.

المخلص هو الذي يذكرنا بالأخطاء لا من يداهنا وياملنا، يقول الإمام الصادق (ع): **(أحب**

إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي) [٢٥]٢٥، ويقول الإمام الباقر (ع): **(اتبع من يبكيك وهو**

لك ناصح ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش) [٢٦]٢٦.

ولا نتوهم أن من ينبهنا على الأخطاء هو العدو لنا وأنه سيتكلم وراعنا بل على العكس فإن

الشخص الذي يتملق أماننا ويمدحنا هو الذي يتوقع منه ذلك، يقول أمير المؤمنين (ع): **(من**

كاشف في عيبك حفظك في غيبك، من داهنك في عيبك عابك في غيبك) [٢٧]٢٧.

وأصحاب السلوك قديما وحديثا يتخذون الأصدقاء من أجل هذه المهمة وهي التذكير

بالعيوب للتخلص منها، وليس من أجل الوقوف في الشدائد فحسب، وبطبيعة الحال لا يعني

إسداء النصح للصديق هو التشهير به أمام الملأ واستعمال الأساليب الجافة وإنما بالحكمة

والموعظة الحسنة، يقول أمير المؤمنين (ع): **(النصح بين الملأ تقرير)** [٢٨]٢٨، ويقول الإمام

العسكري (ع): **(من وعظ أخاه سرا زانه ومن وعظه علانيته فقد شانه)** [٢٩]٢٩ وهذا بحده

موضوع آخر لعلنا نتطرق له في الموضوع المناسب.

[25]٢٥ البحار ج ٧٤ ص ٢٨٢.

[26]٢٦ البحار ج ٧٥ ص ١٠٢.

[27]٢٧ ميزان الحكمه ج ٣ ص ٢٢٠٧.

[28]٢٨ شرح ابن ابى الحديد ج ٢٠ ص ٣٤١.

[29]٢٩ تحف العقول ص ٤٨٩.

والخلاصة: مما تقدم عرفنا أهمية الصداقة والصديق والأهم من ذلك اختيار الصديق المرأة

من أجل أن يكون خير معين لاكتساب الفضائل وترك الرذائل، وإذا توفر هذا النوع من

الأصدقاء فإنه أعظم مكسب من مكاسب الحياة، بل من ظفر بهم فقد فاز بخير الدارين كما

يقول الإمام الصادق (ع): **(قد قل ثلاثة أشياء في كل زمان: الإخاء في الله والزوجة الصالحة**

الأليفة في دين الله، والولد الرشيد، ومن أصاب أحد الثلاثة فقد أصاب خير الدارين والحظ

الأوفر في الدنيا) [٣٠]٣٠، ولعل هذا ما نفهمه أيضاً من قول الرسول (ص): **(ما استفاد مسلم**

فائدة بعد فائدة الإسلام مثل أخ يستفيده في الله) [٣١]٣١.

وقوله (ص): **(من استفاد أخا في الله عز وجل استفاد بيتا في الجنة)** [٣٢]٣٢.

ولنقرأ ختاماً هذا النص عن أمير المؤمنين (ع) إذ يقول: **(الناس أخوان فمن كانت مودته**

في غير ذات الله فهي عداوة) [٣٣]٣٣ وذلك قوله عز وجل: **{الأخلاء يومنذ بعضهم لبعض**

عدو إلا المتقين} [٣٤]٣٤.

للقراءة والتأمل

[30]٣٠ الحقائق في محاسن الاخلاق للفيض الكاشاني ص ٣٢٣.

[31]٣١ البحار ج ٧٤ ص ٢٧٥.

[32]٣٢ ميزان الحكمه ج ١ ص ٤٠.

[33]٣٣ ميزان الحكمه ج ١ ص ٤٠.

[34]٣٤ الزخرف آية ٦٧.

كان للإمام الصادق عليه السلام صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً، فبينما هو يمشي معه في سوق الحذابين ومعه غلام له سندي يمشي خلفهما إذ التفت الرجل يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره، فلما نظر في الرابعة قال: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ قال: فرفع أبو عبد الله الصادق عليه السلام يده فصك بها جبهة نفسه، ثم قال: سبحان الله تقذف أمه؟ قد كنت أرى أن لك ورعاً فإذا ليس لك ورع؟ فقال: جعلت فداك إن أمه سنديّة مشرّكة، فقال: أما علمت أن لكل أمة نكاحاً، تتح عني، قال الراوي: فما رأيتَه يمشي معه حتى فرق الموت بينهما.

الأسئلة

السؤال الأول: ما معنى تغذية الصداقة للأخلاق؟

السؤال الثاني: تمسك القائلون بأفضلية العزلة بعدة أسباب اذكرها؟

السؤال الثالث: ذكرت للعزلة الكثير من المساوي، أذكر ثلاثة منها؟

السؤال الرابع: اذكر شاهداً على رجحان معاشرّة الآخرين؟

السؤال الخامس: كيف يمكن الجمع بين الأخبار الدائمة للعزلة والاختلاط والمادحة لهما؟

السؤال السادس: صنف أمير المؤمنين (ع) الأخوان (الأصدقاء) إلى صنفين اذكرهما؟

وكيف نتعامل مع كل واحد منهما؟.

السؤال السابع: ما هي الصفات التي يجب توفرها في الصديق، والصفات التي يجب أن

يكون مبتعداً عنها؟

السؤال الثامن: كيف يمكن أن يكون الصديق معيناً لصديقه على اكتساب الفضائل واجتناب

الردائل؟

الخاتمة

وبهذا آتي على تمام ما يتعلق بالقسم الأول وإذ أختتم هذه الوريقات أعترف بالانقص

والنقصير، والمؤمل من ذوي البصائر النقية غضّ الطرف عن الهفوات وإسداء مقترحاتهم

البناءة والتي ستنال كل تقديري واهتمامي، كما أرجو منهم أن يبتهلوا إلى المولى القدير أن

يوفقني لتتمّة الأقسام الأخرى من هذا الكتاب.

وأسأله تعالى أن يعيننا على أنفسنا ويجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه وأن يشملنا

بألطافه وأن يديم علينا بركات الوجود المقدّس لإمام العصر أرواحنا فداه، وآخر دعوانا أن

الحمد لله رب العالمين.

جعفر المطر
